نَقْشُ الحَجَرِ

القرآن نسخة شخصية: جزء عمَّ

أحمد خيري العمري

نقش الحجر
«القرآن نسخة شخصية»: جزء «عمَّ»

المؤلف: أحمد خيري العمري

تدقيق لغوي: نهال جمال

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى الفرص «الثانية»...

على أمل «الاستحقاق».

المحتويات

مقدمة أولى 9

مقدمة ثانية 21

النبأ: نشرة الأنباء الشخصية 25

النازعات: عملية التدخُّل السريع 43

عبس وتولى: عن أجمل تقطيبة جبين في التاريخ 53

التكوير والانفطار والانشقاق والزلزلة: تُطبق الشروط والمواصفات 71

الماعون والهمزة والمطففين: الأفكار لها نتائج 97

البروج: لن أبقى في طور الضحية 119

الطارق: ساعي البريد يطرق الباب عدة مرات 129

الأعلى: الارتفاع عمقًا 135

الغاشية: وجه حقيقي في غابة الأقنعة 149

الليل والفجر والضحى والعصر: الحياة... عشية أو ضحاها 155

البلد: بلد المحبوب-علاقات معقَّدة 169

الشمس: ما وراء الشمس 179

الشرح: عن الفرج «مع» الشدة 185

سورة التين: الخلود، تقريبًا 189

العلق: عن لحظات مغروسة في جيناتنا 197

القدر: عن المسكوت عنه، الذي يصنع القدر 215
البيِّنة: مع مرور الأشخاص 221
العاديات: سباق المسافات الطويلة 227
القارعة: أنصِت جيدًا، هل تسمع؟ 233
الكوثر بمواجهة التكاثر: عن الكم والنوع 239
الفيل وقريش: عن الفيل في التفاصيل 247
النصر: دعاء ليلة الامتحان 255
المسد: عن العُقد النفسية التي تقود إلى الهاوية 261
الكافرون والإخلاص والفلق والناس: ما يجب أن يقال 271

مقدمة أولى

لو أنك تمكنت -في مرحلة ما من عمرك- أن تكتب رسالة إلى نفسك في عمر مبكر نسبيًّا، فإنك غالبًا ستخبر نفسك عن كل ما يجب أن تتجنبه من مزالق وأخطاء، هفوات قادت إلى كوارث، طباع شخصية قادتك إلى خسارة أناس أحببتَهم بصدق وافتقدتَهم بكثافة.

في مرحلة ما، ليست مبكرة حتمًا، غالبًا بعد النضوج، وقبل أن تقترب النهاية، على الأقل في ذلك العمر الذي تعرف فيه أن القادم قد يكون أقل مما مضى، في هذه المرحلة، لو أُتيح لك -بمعجزة- أن تكتب لنفسك رسالة، فإن هذه ستكون فرصة لا تعوَّض لك، تمنحها لنفسك

لكي تقول لها كل ما يجب أن تقوله وكل ما يجب أن تسمعه، قبل أن يفوت الأوان.

تلك الرسالة، عندما تسنح لك الفرصة لكتابتها، لن تكون فقط رسالة إنقاذ وتحذير لنفسك في نسختها الشابة على أولى خطوات الحياة...

بل ستكون أيضًا رسالة مكاشفة ومصارحة مع الذات والنفس. والمكاشفة شفاء، أو على الأقل هي جزء من رحلة الشفاء.

الشفاء ممَّ؟ مَن المريض هنا؟

أنت. نحن. كلُّنا. على الأقل أغلبنا. بنسبةٍ ما متفاوتة من شخص إلى آخر، لكن من المستغرَب جدًّا أن تصل في العمر إلى مرحلة النضوج وما بعدها دون أن تنال من نفسك بعض الأدران والأسقام. النسبة متفاوتة حتمًا، وكثيرون ستكون إصاباتهم خفيفة، سطحية، ولكن هناك من سيكون مثقَلًا بحِمل كبير، بأحمال كبيرة.

مكاشفتك لنفسك، مواجهتك لذاتك، ستكون صادقة وصريحة بلا شك، لا يمكنك أن تجامل وأنت ترسل رسالة إنذار لنفسك في نسختها المبكرة، يمكننا أن نجامل أنفسنا وحتى نخدعها في ظروف أخرى، لكن مع حقيقة أن هذه الرسالة قد تنقذك، قد توقِظك، قد تغيِّر طريق

حياتك، فلا يمكن إلا أن تنصاع إلى الحقيقة، مهما كانت ثقيلة أو قاسية، أو توقظ جراحًا أو آلامًا تفضِّل أن تبقى نائمة. مهما كان الثمن باهظًا، النتيجة تستحق المحاولة.

ستكتب لنفسك كل شيء، كل مخاوفك السرية، ستحرق كل محذوراتك، ستقول لها أن تحذر من ذاك المنعطف الذي بدا آمنًا، ومن ذلك المنحدر الذي تخيلتَ أنك قادر على السيطرة على اندفاعك فيه، ومن تلك التلَّة التي تخيلتَ أنها ستوصلك إلى القمة، من ذلك «اللاشيء» الذي اتضح أنه أشياء كثيرة، وذلك الشيء «الصغير» الذي تبيَّن أنه كبير جدًّا، وذلك الشيء الذي قررتَ أن «تجرِّبه فقط» ثم أصبحتَ عبدًا له. ستواجه كل ما أوداك إلى مهاويك وقيعانك. نقاط ضعفك التي تجاهلتَها حتى أصبحت ثقوبًا سوداء التهمتْك، عليك أن تحذِّر نفسك منها. لن تتهاون معها بعد أن عرفتَ ما فعلتْه نقاط ضعفك تلك.

رسالة لنفسك. واحدة فقط. فرصة أخيرة قبل أن ينتهي كل شيء. تخبر النسخة المبكرة منك عمَّا يجب أن تتجنبه، عن درب الندامة الذي كان يمكن تفاديه، ودرب السلامة الذي كان عليك أن تسلكه. رسالة كلٍّ منَّا لنفسه ستكون مختلفة حتمًا، لكلٍّ منا درب ندامته الخاص به، وثقوبه السوداء التي التهمتْه ولم تلتهم سواه. لا رسالة

«موحَّدة» قابلة لأن تكون صالحة للجميع. لكلٍّ منا صندوقه الأسود الخاص به، الذي يروي ما حدث له في سقوطه.

هذه الرسالة يمكن أن تنبِّه قائد الطائرة، عن أسباب ما حدث لها، في ذلك السقوط الذي ربما لا يعرف أحد عنه شيئًا، ولم يلاحظه أحد... سواك.

***

للأسف هذا لن يحدث.

لن تكون هناك فرصة كهذه، على الأقل ليس في الوقت الحالي.

حاليًّا هذا يمكن أن يحدث فقط في أفلام الخيال العلمي أو أدبياته، حيث يخترع أحدهم آلة للانتقال عبر الزمن، أو وسيلة لإرسال الرسائل إلى الماضي.

رغم ذلك، هناك فرصة لفعل الشيء ذاته، لكن بطريقة أخرى.

بطريقة ما، هذه الرسائل التي تتمنى لو أنك تكتبها لنفسك المبكرة، موجودة بالفعل.

بطريقة ما نحن نعرفها جميعًا.

لكننا لا نفهم ذلك إلا بعد أن تنضِجنا التجارب وتملأ ذاكرتنا الجروح والطعنات والانكسارات.

هل يكون الأوان قد فات عندما نكتشف هذه الرسائل؟

أؤمن شخصيًّا أن الأوان لا يفوت إلا بعد أن ينتهي العدَّاد تمامًا، أي بعد أن ينتهي كل شيء.

كلما تأخر الأوان يكون الأمر أصعب بلا شك.

لكن الوصول متأخرًا أفضل بالتأكيد من عدم الوصول. يمكنك أن تنزل من القطار الخاطئ مهما سار بك في الطريق الخاطئ، يمكنك أن تأخذ قطارًا في الاتجاه المعاكس، وتبدِّله عدة مرات، وتسير لأميال على قدميك –تحت المطر، في الوحل، وبلا مظلة– لكي تصل إلى المحطة التي كان يجب أن تأخذ منها القطار الذي فاتك قبل عقدين أو أكثر أو أقل، يوم كانت الاحتمالات أكثر، والإمكانيات أوفر، وكل شيء في الحياة يبدو لك كما لو أنه يمكن أن ينطبق على خطة رسمتَها في خيالك البِكر الذي لم يمر بتجارب بعد، فقط أحلام وخيالات ونظرة وردية لعالم ستتعرف على حقيقة ألوانه بالتدريج، وبالخيبات وبالانكسارات، كما بالانتصارات وبأثمان باهظة لكل شيء.

***

هذه الرسائل متروكة في دُرج مغلق.

ليس مغلقًا بالضبط. كثيرًا ما تمر عليه، تفتحه وتستخدم ما فيه، لكنك لم تنظر إلى هذه الرسائل على أنها رسائل شخصية قط، تعاملتَ معها أحيانًا كما لو كنت تتعامل مع بطاقات بريدية قديمة، تعتز بها وبذكرياتك معها، لكنها غالبًا لا تحتوي إلا على كلمات التهنئة والمباركات الاعتيادية. أو هكذا طالما اعتقدتَ.

بالأحرى: أنت لم تنظر إليها إلا على أنها شيء تعرفه تمامًا. لم تحاول أن تنظر إليها مليًّا وبعمق، ولم تحاول أن ترى فيها رسائل كنت سترسلها إلى نفسك لو سنحتْ لك تلك الفرصة.

دُرج مغلق، أو صندوق مغلَّف، أو حزمة بشريط.

لكن هذا الدُّرج المغلق ليس في المكتب مع بقية الأدراج حيث تحتفظ بأوراقك الرسمية ووثائقك، وليس تحت السرير أو فوق الدولاب مع بقية الأشياء التي تعتبرها أقل أهمية من أن تكون أمامك، وتعتز بها أكثر من أن تلقي بها.

هذا الدُّرج المغلق يقع في ركن من أركان ذاكرتك، ذاكرتك العميقة التي تقبع في الأعماق، والتي تحتاج إلى الوعي لكي تصل إليها.

إنها هناك، في دُرج ما، لا يُفترض أن يكون مغلقًا، ولا أن يكون سريًّا.

لكنك راكمت عليه الأشياء تلو الأشياء، حتى أغلق.

وحتى توهمت أنه سريٌّ.

بل وحتى نسيتَه.

***

هذه الرسائل التي لم تكتبها لنفسك موجودة في آخر مكان يمكن أن يأتي في ذهنك، إنها موجودة في الجزء «عمَّ».

الجزء الثلاثون من القرآن.

الجزء الذي غالبًا ما نبدأ حفظ القرآن وتلاوته به ونحن صغار.

وأغلب الناس يصلُّون صلوتهم بسور منه تحديدًا.

ولأن أغلب قصار السور جاءت فيه، فقد تفتَّقتْ ذاكرتنا عليه وبه وفيه ومنه.

شيء منه قد تسرب إلى داخلنا، إلى جينات وعينا، إلى أعماق لا وعينا.

ثم ... ثم ماذا حدث؟

ثم حدث أن كبرنا، وسارت بنا الطُّرق وتقطعت بنا السُّبل، تغيَّر الأصدقاء وتغيَّرنا نحن أيضًا، أولئك الأصدقاء

الذين تصوَّرنا أن العالم لا يمكن أن يكون دونهم، مضوا وذهبوا وغادروا ولم يحدث شيء للعالم، وتغيَّرنا نحن أيضًا، كبرنا بمرور السنوات والأصدقاء والتجارب والنكبات والطعنات والانكسارات وخيبات الأمل.

لكن الجزء عمَّ لا يزال هناك، بطريقة ما، ينتظر منا أن نزيح عنه ما راكمناه عليه.

***

وذلك الطفل الذي كُنَّاه يومًا ما، تذكرونه؟

تذكرونه يوم كان الحفظ أكبر مهامه وأشقها؟ تذكرونه يوم كان عالَمه بريئًا، نقيًّا، واضحًا، فيه الأبيض واضح وبيِّن وجلي ونقي، والأسود كذلك كان أسود تامًّا لا يشوبه بياض مشوِّش للرؤية.

تذكرونه؟ بخجله وارتباكه حينًا وبثقته وتسرُّعه أحيانًا، بشقاوته البريئة وببراءته الشقية، كان لا يزال صفحة نقية إلا من كل الإمكانات والاحتمالات.

أيامها كان يتشرب بالأبجدية، ومعها كان يأخذ رشفات من الجزء عمَّ.

وكانت الأبجدية خطوة أولى في درب تدجينه أو إطلاق سراحه.

وهناك كان جزء عمَّ حقنةً أولى للوعي والقيم، مصلًا مضادًّا لكل الشرور في هذا العالم.

تذكرون ذاك الطفل وهو ينظر بتحفُّز إلى العدسة في صورة دخوله إلى الروضة؟ أو تلك الطفلة بضفيرتها التي تبدو مضحكة اليوم؟

تذكرونه وجزء «عمَّ» في يده؟

إن كنتم قد نسيتم، فهو لم ينسَ. لا يزال يذكركم.

لعلَّنا نذكره ولكننا نتناساه، نهرب من مواجهته، نخجل من أن يرانا بعد كل تلك السنوات، أصبحنا محمَّلين الآن بما لا نحب أن نتحدث عنه، ما نتمنى ألا يعرفه ذلك الطفل البريء الذي يحمل جزء عم بيده.

ربما لدى البعض منا شعور خفي بالذنب يمنعنا من مواجهته. نعرف أنه سيكشفنا فورًا، سيعرف كل ما اقترفناه.

ربما براءة ذلك الطفل تذكِّرنا بكل ما فقدناه في رحلة نضوجنا المُر.

وربما هذا يجعلنا نتحسَّس أكثر من فكرة لقائنا به.

أو بجزء «عمَّ» في يده.

***

جزء «عمَّ» هناك، في ركن ما من أركان ذاكرتنا.

يقف، أحيانًا مثل الطفل الذي كان.

وأحيانًا مثل الجد الذي سيتقبَّلنا على عيوبنا، ويحبنا مهما فشلنا أو أخفقنا.

وأحيانًا مثل المراهق الحائر الذي يقف على مفترقات الطرق المتداخلة.

يحمل لنا الرسائل التي كنا سنكتبها لأنفسنا لو سمحت لنا الفرصة.

كلها موجودة في طيات سور جزء عمَّ.

***

ليست كلها رسائل إنذار وتحذير تنبِّهنا إلى أعلام حُمر مرت في طريقنا دون أن ننتبه لها، أو ربما انتبهنا ولكن...

بعضها رسائل مواساة، تطبطب على رؤوسنا المنهَكة، وتربِّت على أكتافنا المثقَلة، تمسح على صدورنا المتعَبة.

وبعضها رسائل تمنحنا مساحة بوح وفضفضة، حيث نقول كل ما احتبس على حافة أفواهنا ولم نجرؤ على إخراجه.

بعضها رسائل لوم، وعتاب، ومواجهة...

وبعضها رسائل حب، حقيقية، صادقة، صافية، بلا شروط مسبَقة وبلا أحكام جاهزة. رسائل حب قليلون منا تلقوها أو أرسلوها في حياتهم.

بعض الرسائل ستكون مثل نتائج مخبرية صادمة، تخبرنا الحقيقة كما هي، الحقيقة بحذافيرها، دون أي تزويق.

وبعضها ستكون فواتير باهظة الثمن، علينا أن ندفعها عاجلًا أو آجلًا.

وبعضها ستكون رسائل تذكير بالديون المستحَقَّة.

مهما اختلفت هذه الرسائل فهي تدور حول معنى واحد، يضم بدوره طبقات من المعاني الممتدة المترابطة مع بعضها بعضًا.

المعنى الأهم في حياتك، والذي ستتوقف عليه آخرتك.

***

كلها رسائل كنت ستتمنى لو أنك كتبتَها وأرسلتَها لنفسك قبل أن يفوت الأوان.

لكنك لا تحتاج إلى ذلك حقًّا.

لأنها موجودة أساسًا.

مكتوبة كنقش الحجر على نخاعك، على تلافيف دماغك، على جدران حجيرات قلبك، على خلاياك الحُمر

والبيض، على فقراتك الممتدة من قمة سجودك إلى قاع كبريائك، على سلاميات أصابعك التي كنت تتمنى لو كتبتْ تلك الرسائل.

هي جزء منك، رسائل نقش الحجر هذه تتنفس شهيقك وتخرِج زفيرك. تعيش معك كقرين لم تصدِّق يومًا بحقيقة وجوده. صدِّق أو لا تصدِّق، لقد أصبحتْ جزءًا من جيناتك. دخلت في خريطتك الجينية. لَم تستخدمها؟ نعم، ربما ليس كما يجب. لكنها هناك.

كل ما حدث، وباختصار شديد، هو ما يحدث ذاته مع الكثير من الرسائل التي تبعثها لك الحياة. تبقى تحت عنوان «غير مقروءة».

أسوأ من ذلك، أن تذهب إلى عنوان آخر: «مهمَلة».

***

آمل أن يتغيَّر عنوان هذا الملف الذي يضم الرسائل.

آمل أن تكون الفرصة لم تفُت بعد.

... لي..

ولك أيضًا.

مقدمة ثانية

عزيزي أنا:

لا أعرف كيف أقولها لك ولكني مضطرٌّ إلى أن أفعل.

عليَّ أن أنهي علاقتنا، الأمر صعب عليَّ، كما هو عليك، ولكن لا بد، لا، لا تلُم نفسك، المشكلة ليست فيك، بل فيَّ أنا. أنت حتمًا تستحق شخصًا أفضل، أو ربما أنا من يستحق ذلك، لا أعرف. ثمة تداخل في هذا كما تلاحظ، لكن علاقتنا أضحت معقَّدة ومسمومة. إن لم تكن قد أدركتَ ذلك فهذه مشكلة، لكني موقن أنك لو فكرت مليًّا ستعرف عمَّ أتحدث. كل علامات العلاقات المسمومة موجودة في هذا الذي بيننا. مَن السبب؟ سأتحمل اللوم

وأوفِّر عليك الدفاع عن نفسك. لقد تبادلنا معًا -أنا وأنت- لعب دور الضحية لفترات طويلة من علاقتنا، ربما منذ أن تعرَّفنا على بعض. وأظن أن لا بد مما لا منه بد. جاءت لحظة الحقيقة يا صديقي. لقد تدربتُ على الأمر طويلًا، أعدتُه في بالي مرات ومرات. لا تظن أنها محاولتي الأولى في الإفلات من شرك علاقتنا. لا، لقد سئمتُ العدَّ، وسئمتُ الفشل، سئمتُ محاولاتي. اليوم عليَّ أن أكون حاسمًا معك، أو معي. أو معنا.

لقد قضينا وقتًا طيبًا معًا، أنا وأنت، أو هذا ما توهمناه ذات غفلة استغرقت عمرنا كله أو كادت. هذا ما عجزنا عن إدراكه. أيُّ هاوية كنا نستمتع بالتسلق إليها! لا أعرف كيف تسلقتُ إلى هاويتي أصلًا وأنا أكره المرتفعات! لكن تعرف طبعًا كيف تسير الأمور بالتدريج، رويدًا رويدًا. تتسلل الغفلة على أطراف أصابعها. هذا النوع من العلاقات يلهيك ويخدرك ثم تجد نفسك فجأة وأنت تسقط إلى القاع.

لا ألومك يا أنا. لا تفهمني خطأ. أو إن شئت، افهمني كما تشاء. أفهم الآن أنها مصيدة سقطنا فيها نحن معًا، لا ينفع اليوم اللوم. عليَّ أن أنهض من قاعي. عليَّ أن أنقذ نفسي قبل أن يغادر القطار الأخير المحطة الأخيرة. لذا

أقول لك اليوم، على كلِّ شيء أن ينتهي بيننا. الآن وهنا. إلى الأبد.

لعلك تراهن على تسويفي، لعلك تقول: «ها هو يفعلها مجددًا. يهدِّد ويتوعَّد وينهي كل شيء. ثم يتسلل عائدًا».

أفهم ذلك، لقد عشتُ ذلك معك، وقلتُه في نفسي قبل أن تفعل.

لا أزال أذكر كيف كنتُ أستمتع بالتسويف الذي تمارسه وكيف تؤجِّل مواجهة الأخطاء، لا أزال أذكر كيف كنتُ أستمتع بالركض وراء المُتع العابرة، وراء الكسل، وراء الراحة والخيارات السهلة، وراء الخيارات الخاطئة.

نعم، كل ذلك كان وقتًا عابرًا تراكم عليَّ، دُفع ثمنه بالآجل. وها أنا أدفع فواتيره المتأخرة. أو أكاد.

كفى.

أقول لك: كفى.

الآن صار عليَّ أن أكون جادًّا أكثر، حاسمًا أكثر، أن أنهي علاقتنا ببعضنا، مرة واحدة وإلى الأبد، إلى الأبد.

أعاني اليوم الكثيرَ منك، ومما فعلتَه بي، وسأعاني أكثر عندما أتركك، لكنه لا بد. وقت ويمر، كما يمر كل شيء. سأتعوَّد. سيكون وقتًا صعبًا في البداية، لكني سأكون بخير. كفى. مرة واحدة وإلى الأبد.

عليَّ أن أرى حياة أخرى، أن أبدأ من جديد.

عزيزي (أنا)، ثمة أنا جديدة عليها أن تولَد في داخلي، ثمة خيارات أخرى، طرق أفضل، لم يفُت الأوان بعد، (أو على الأقل هذا ما آمله).

المخلِص «سابقًا»: أنا.

النبأ: نشرة الأنباء الشخصية

عزيزي أنا:

في حياتك ستكون هناك أسئلة كثيرة، بعضها كبير ويخص كل البشر، وبعضها سيكون خاصًّا بك وحدك، لكن هذه الأسئلة كلها تتشابه في النهاية. إنها أسئلة البشر في رحلة حياتهم. أحيانًا تكون «ماذا، ولماذا، وكيف» عن كل شيء في الوجود، منذ نقطة البداية، وأحيانًا «ماذا سأكون، كيف سأكون»، وفي أحيان أخرى ستكون «أين سأذهب هذا المساء، مع من، وماذا سأرتدي».

وفي حياتك أيضًا، ستكون هناك أنباء كثيرة. بعضها عاجلة ومهمة، بعضها أقل أهمية وأقل عجلة.

غالبًا هذه الأنباء تكون نتيجة لأجوبة الأسئلة التي مررتَ بها.

وفي مرة واحدة على الأقل، يكون الطريق بين السؤال والجواب ملحمة، ملحمة تحمل في نهايتها خبرًا عظيمًا مهولًا.

هل هو خبر سار مفرح أم حزين مفجع؟ هذا موضوع آخر.

***

لكلٍّ منا ملحمته الخاصة.

مهما كانت حياته تبدو عادية، تشبه حياة الآخرين، وحياة الآخرين تشبه حياته.

مهما بدا له –وللآخرين أيضًا– أنه غير مميَّز، عادي جدًّا، بلا علامات فارقة، مثل الملايين غيره.

لكلٍّ منا ملحمته الخاصة به التي لا يعرف عنها شيئًا، لا يعرف أنها ملحمة، ولا يعرف أن لديه قصة عظيمة في حياته.

بل ربما لا يعرف أن لديه قصة أصلًا.

لكنها قصة حقيقية، مهما كانت تبدو عادية أو مملة، ففي نهايتها نبأ عظيم.

نبأ عظيم يخصُّه هو.

أي نبأ آخر يستحق التساؤل؟

في النهاية، مع كل انتصاراتنا ونجاحاتنا وشهاداتنا وعلامات الإعجاب وأعداد المتابعين والأكثر مبيعًا والرقم واحد، أو مع كل فشلنا وهزائمنا وحملات التشهير والتنمر، مع كل ما مررنا به من الملل أو الإثارة، مع كل حياتنا العادية الحافلة بمناسبات عادية يمر بها كل البشر، تزيد مناسبة أو تنقص صورة في ألبوم الذكريات.

كل ذلك، في النهاية، يمكن أن يكون (لا شيء) بالنسبة إليك، حرفيًّا (لا شيء).

يمكن أن نتخلى عنه، ولن نتردد لحظة واحدة في أن نؤكد أننا نريد حذفه.

مقابل نبأ عظيم واحد.

نبأ عظيم لكنه ليس من نوع الأنباء التي تنشرها على وسائل التواصل.

***

القرآن يقدِّم لنا نشرة أنباء خاصة جدًّا.

شخصية وخاصة ومصمَّمة خصيصى لك.

وفي الوقت ذاته: مناسِبة للجميع.

النبأ العظيم في هذه النشرة لا يتصدَّرها، بل هو متروك لنهايتها.

أما الأنباء التي تتصدَّر النشرة فهي أنباء عظيمة أيضًا، لكن عظمتها مغطاة بتعوُّدنا عليها، خيوط الرتابة والروتين نسجت عليها غطاء كثيفًا يجعلنا نراها دون أن نبصرها، لا ننتبه لوجودنا رغم أن وجودنا قائم عليها.

إنها أنباء عظيمة منسية في خضم هرولتنا اليومية في سباق التفاصيل.

هذه الأنباء تتعلق بما نعتبره بدَهيًّا حولنا، أن الأرض ممهدة منبسطة، وأن الجبال مثل أعمدة، وأننا «أزواج»، وننتمي إلى المخلوقات التي تُعتبر «نهارية المعاش- ليلية الراحة»، وأن ذلك مرتبط بتعاقب الليل والنهار وموقع الأرض بالنسبة إلى الشمس، وطبقات الغلاف الجوي التي تلعب دورًا في نزول الأمطار والمناخ بشكل عام، الذي يتأثر كذلك بالتضاريس المرتفعة ويؤثر كل هذا بدوره على ما ينمو من الأرض، أساس حياة الإنسان.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ

ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾ [سورة النبأ].

هذه الأمور التي تبدو مجرد بدَهيَّات بالنسبة إلينا، لا نرى فيها نبأ عظيمًا أو خبرًا عاجلًا، لأنها «تحدث» كل يوم، ولأننا نراها تحدث كل يوم فقد توقَّفنا عن رؤيتها، هذه الأمور بتداخلها وتناغمها تشكِّل «الأساس لوجودنا» كله. لولا كل هذا «العادي» لما كان هناك نحن ولا كان هناك شيء حولنا.

الأنباء التي تتصدر النشرة هي التي نراها كل يوم ولا نلتفت لها.

كل هذه «العاديَّات» –التي لا يمكن أن تكون أخبارًا– تتداخل لتنسج أساسات وجودنا ومعاشنا، لو أن واحدة من هذه اختلت وفقدت لأدى ذلك إلى خلل في حياتنا كلها، ولو استمر ذلك وتراكم، قد تنتهي هذه الحياة.

***

أؤمن أن ثمة منطقًا يحكم تسلسل ذكر الأشياء في القرآن الكريم.

في هذه السورة يأتي التسلسل:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾

الأرض، الجبال، أزواجًا، النوم، الليل، النهار... إلخ.

لا أعتقد أن هناك ما يمكن أنه جاء في القرآن دون معنى. حاشا كلام الله.

أحيانًا أجد هذا المنطق، وأحيانًا لا أجده. وعدم إيجاده لا يعني عدم وجوده، بل يعني قصوري أنا عن إدراكه، وربما قدرة غيري على ذلك.

في تسلسل ذكر هذه (الآيات) في سورة النبأ علاقة واضحة: الأرض ثم الجبال ـ تضاريس متجاورة، وكما لو أن العلاقة بين الأرض والجبال هي جزء من الثنائيات في هذا العالم، فتأتي آية (وخلقناكم أزواجًا)، ولأن هذا التزاوج يستلزم السكينة فتأتي (وجعلنا نومكم سباتًا)، وبعد النوم يأتي (الليل لباسًا)، وبعد الليل (النهار معاشًا)... وهكذا.

هذا ما كان يبدو لي دومًا.

اليوم ألتفت إلى تجاور الجبل مع الأزواج في السورة، فيأتي في ذهني أن هذه الجيرة قد تشمل معنى آخر. كما

الجبال أوتاد، فكذلك يكون بعض الأزواج (أو الزوجات) أوتادًا لأزواجهم، يكونون جبلًا شامخًا يوفِّر

لهم المأوى والغار والمنجم.

بعض الأزواج أوتاد لأزواجهم، وكما يمر الكثيرون على الآيات في حياتنا دون التفات، فكذلك يتعامل البعض مع الأوتاد في حياتهم كما لو كانوا شيئًا مضمونًا دائم الوجود بصلاحية لا تنتهي.

والأسوأ من ألَّا تلتفت للوتد في حياتك، أو ألَّا تكون وتدًا له بالمقابل، الأسوأ هو أن تكون خنجرًا في صدره، فتطعنه حيث كان يجب أن ترد له وقفته وقيامه.

يحدث، ويحدث كثيرًا للأسف.

الويل لمن لم يكن وتدًا لوتده.

وويل أكبر لمن كان خنجرًا في صدره.

***

لو أننا كنا على الضفة الأخرى -المعاكِسة للإيمان- هناك في مكة، وقت البعثة -وهو أمر وارد جدًّا قياسًا على نسبة من آمنوا وقتها- لربما كنا نتساءل أيضًا.

ربما كنا نتساءل: ما الذي يجعل هؤلاء يتبعون محمدًا -عليه الصلاة والسلام- إلى هذه الدرجة بحيث يتركون كل شيء، عشيرتهم، بيوتهم، تجارتهم ويسيرون خلفه؟

نحن في مرحلة متقدمة من المرحلة المكية. نزلت سورة النبأ على بُعد ست سور فقط من الهجرة. أي ربما أن بوادر هذه الهجرة كانت قد بدأت تتضح لكفار مكة.

كل صباح، كانت قريش تستيقظ لتكتشف أن واحدًا من المسلمين قد تركها. كل شيء كان قبل ذلك صعبًا على الفهم بالنسبة إليهم، لكن هذا تجاوز كل شيء.

لا بد أنهم كانوا يتساءلون، يتساءلون عما سيفعله المسلمون في وجهتهم الجديدة. هل سينتهي كل شيء بمجرد تركهم لمكة؟ لكن كيف يمكنهم أن يتركوا مكة – وهي حاضرة العرب الأهم- للعيش في مدينة كانت تبدو أقل أهمية وعلى الهامش؟ فكرة ترك العشيرة والقبيلة كانت غريبة على القرشيِّ المعتز بنسبه، والبدء من الصفر كان مفهومًا غريبًا جدًّا.

ولعل التساؤل الأهم والأكبر كان: ما هو الدافع وراء كل ذلك؟ ما هو الشيء الذي يحرِّكهم؟ هذا الشيء الذي كان في البداية أمرًا يسخرون منه، صار أمرًا يؤرِّقهم ولا يجدون له تفسيرًا. الأجوبة المبكرة (إن محمدًا -عليه الصلاة والسلام- قد سحرهم) لم تعد مقنِعة حتى لهم. الأمر أكبر حتمًا. لا يبدو أيٌّ من هؤلاء الرجال مسحورًا أو ممسوسًا، لكنهم ما زالوا غير قادرين على فهم «المحرك»

وراء هذا كله. ذلك أنهم كانوا لا يزالون على الضفة الأخرى من الإيمان.

كانوا يتساءلون عن «النبأ العظيم» الذي لا يستطيعون فهمه. الوقود الذي يحرِّك المسلمين. وكانوا لا يزالون مختلفين في تحديده. تفسير «السحر» لم يعد يجدي نفعًا. لكن ربما هو نوع جديد منه؟ أو طلب للرياسة وقد وعدهم عليه الصلاة والسلام بحصة منها؟ أو ربما هي مؤامرة من قبائل أخرى لتقويض مكة وإذهاب هيبتها.

لكن على الضفة المقابلة، كان النبأ العظيم واضحًا. القرآن، أو يوم القيامة، البعث بعد الموت. هذه ليست مجرد «معلومات» بالنسبة إلى المؤمنين. ليست مجرد أخبار صدَّقوا بها، بل هي نبأ عظيم بالنسبة إليهم، شيء غيَّر حياتهم كلها، منحهم الهدف والاتجاه والوقود.

في الطريق إلى كل هذا تستدرجهم السورة إلى الإحساس بالمقصد والمنطق في كل ما تعودوا عليه في حياتهم. ألم نجعل الأرض مهادًا؟ والجبال أوتادًا؟ وخلقناكم أزواجًا؟ وجعلنا نومكم سباتًا؟

كل شيء يبدو له هدف وفائدة.

فكيف يمكن أن تكون حياتك عبثًا؟ بلا حساب لاحق؟ كيف يمكن أن يكون لكل قطعة في هذه الأحجية ما يكملها ويتمها، إلا حياتك، تكون بلا معنى؟

السورة تستفز «الحس العام»، المنطق البسيط، لتجعلهم ينتبهون أن ثمة ضفة أخرى، يمكن أن يشاهدوا الأمور منها على نحو أوضح.

***

حسنًا، هذه هي الأنباء التي تصدَّرت النشرة.

فأين النبأ العظيم؟

هو قادم لا محالة، مثل قنبلة موقوتة لا يمكن لأحد أن يبطِلها. إن يوم الفصل كان ميقاتًا. أما التفاصيل فلك أنت وحدك أن تقرِّرها. النبأ العظيم ينتظرك، لا يمكنك أن تؤجِّله أو تؤخِّره أو تقدِّمه. لكن بإمكانك أن تغيِّر في تفاصيله. يمكنك أن تحدِّد أين سيكون مكانك. يمكنك أن تحدِّد إن كانت جهنم ستكون لك مرصادًا، أم سيكون هناك «مفاز» لك.

العظيم في هذا النبأ هو أنه على العكس من الأنباء التي بدأت بها السورة، لديك خيار فيه. ليس لديك خيار في أن الأرض مهاد والجبال أوتاد، هذا أمر دبَّره ربك، لكنه عز وجل، تعالت حكمته، ترك لك الخيار ومنحك

أدوات الإرادة، وأنت من يقدِّم المعطيات التي ستحدِّد إحداثيات وتفاصيل موقعك في يوم الفصل.

هل تحاول أن تتساءل وتعترض: ما الذي يثبت أن كل ذلك سيحدث أصلًا؟

إن كانت الأنباء التي ابتدأت بها السورة، والتي نعيش من خلالها وبها، والتي تعوَّدنا عليها لدرجة التبلُّد، لم تقنعك أن من رتَّب لكل ذلك لم يفعل ذلك عبثًا، حاشاه، وأنه يمكن أن يرتب المزيد والمزيد كتحصيل حاصل، إن لم تقتنع بإمكانية حدوث ذلك على الأقل، فأنت وما تريد. لا داعي لبذل المزيد من الحِجج. كل مقوِّمات حياتك وبقائك على قيد الحياة لم تنفع في أن تقنعك؟ إذن لا مشكلة. أنت وما تريد. لن يؤخِّر ذلك من موعد يوم الفصل ولن يغيِّره، لكنه سيؤثِّر حتمًا على تفاصيل وضعك حينها.

موقفك هذا، الرافض المتشكِّك لحدوث «النبأ العظيم»، يشبه موقف شخص دخل بناية ضخمة مليئة بالدهاليز والممرات، وأمام كل ممر ودهليز هناك علامة إرشادية توضِّح الطريق وتدل عليه، وفي كل مرة يتبع هذا الشخص هذه العلامات يتيقَّن من صحتِها ودقتِها.

إلى أن وصل إلى علامة تقول «خطر»! قنبلة موقوتة، فوقف يجادل ويطالب بالأدلة والبراهين على صحة هذه العلامة.

صحة علامة التحذير هذه مبنية على صحة كل ما سبق. بلا تشبيه، لكن لا أحد يناقش إدارة المرور في صحة علامة الخطر، إذا كانت إدارة المرور قد أتقنت عملها في العلامات السابقة، فمناقشةُ علامة واحدة وتركُ كل ما سبق يدل على وجود مشكلة في عقل واستقبال الشخص «المناقِش».

وبخاصة إذا تعمد عدم تجنب الخطر الذي تحذر منه العلامة، فقط لكي يثبت أنها غير صحيحة.

***

تريد برهانًا؟ رسالة إنذار موجَّهة شخصيًّا باسمك كما هو مكتوب في جواز السفر؟

لن تفعل هذا مع إنذار الزلزال أو الحريق أو الإعصار.

فلماذا تفعل مع ما هو أعظم وأشد خطرًا؟

***

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة النبأ].

عادة، عندما نتحدث عن الحساب، فإن أول ما يخطر في أذهاننا هو مخافته ومخافة عواقبه.

لكن الآية هنا لا تصف الكافرين بأنهم كانوا لا يخافون حسابًا، وهو الوصف الأقرب إلى توقعاتنا والصورة الذهنية الراسخة في رؤوسنا.

لا، الآية تقول لنا إنهم كانوا لا يرجون الحساب، أي إنها تقول ضمنًا إن أولئك الذين على الضفة الأخرى من الوصف، أي المؤمنين، كانوا يرجون الحساب ويتمنونه.

الآية تقول لنا إن الخوف من الحساب ليس الموقف الوحيد للتعامل معه، بل أحيانًا يكون هناك العكس، هناك رجاء الحساب، هناك تمنِّيه.

هناك بشر يقدِّمون لحياتهم وحياة الآخرين مِن حولهم ما يجعلهم يتطلعون بشغف إلى يوم يحاسَبون فيه. هناك بشر يكونون سعداء بالإنجاز الذي حققوه لدرجة تجعلهم يرجون الحساب ويحلمون به.

عندما تكون صحيفة أعمالك خالية مما يستحق النظر، سيكون مجرد التفكير في الحساب أمرًا مرعبًا، لذا قد تفضِّل أن «تتجنبه»، أو تتجنب تصديق وجوده.

***

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١﴾ [سورة النبأ].

مفاز المتقين هو «الجهة الأخرى» المقابلة لمرصاد الطاغين.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢﴾ [سورة النبأ].

المفاز مقابل المرصاد.

ما يضمُّه المكانان مختلف تمامًا، لا مجال للمقارنة.

لكن هناك فرقًا في تسمية كلٍّ منهما، المرصاد، والمفاز.

المرصاد يترقب وصولك، ينتظرك، يراقب خطواتك وأنت تقترب منه بالتدريج، في الغالب أنت تقترب منه وأنت غافل عنه، غير واعٍ بما أنت مقبِل عليه.

أما المفاز فهو مثل نقطة النهاية في سباق طويل تقضي عمرك في التحضير له.

المرصاد ينتظرك ويستعد لك.

والمفاز تنتظره وتستعد له.

في الأول، الطريق إليه يمر بلا وعيك، بغفلتك.

أما الثاني، فوعيك هو طريقك.

***

في السياق نفسه: في المرصاد هناك ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾، أما في المفاز هناك ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

الجزاء الوفاق هو الجزاء «الموافق» للجرم الذي اقترفه «الطاغون». سيئة مقابل جزائها.

أما الجزاء العطاء الحساب، فهو «عطاء» منه عز وجل، يتجاوز «الحسنة» إلى أضعافها، يتعامل مع أصحاب الحسنة بمضاعفات حسابية لا تخطر لهم على بال.

***

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ **[سورة النبأ].**

في الحديث الصحيح قال عليه الصلاة والسلام: «يقضي الله بين خلقه الجن والإنس والبهائم، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله: كونوا ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: ❊«يا ليتني كنت ترابًا»❊»[1].

(1) السلسلة الصحيحة 1966

في لحظة حادة مفخخة، يرون بأم أعينهم، عيانًا جهارًا، يرون أن الدواب والحيوانات قد تحولت إلى تراب.

وفي تلك اللحظة يقارنون، يوازنون، بين ما فعلوه في حياتهم، وما فعلته الحيوانات.

في لحظة كاشفة صعبة يرون الحقيقة.

لقد عاشوا حياتهم بطريقة ليست أرقى بكثير من تلك الحيوانات.

الحيوانات تتبع غرائزها لكي تبقى على قيد الحياة، وهم أيضًا، وضعوا غرائزهم في دفة القيادة -ليست بالضرورة غرائز جسدية، فالغرائز أوسع وأكثر من أن تُختصر في ذلك- ربما زوَّقوها ووضعوا لها تسميات مختلفة، لكنهم يعرفون، في أعماق أعماقهم، أنها هي هي، غرائز متنكِّرة خلف مصطلحات أنيقة.

وفي تلك اللحظة، سيقولون تلك الجملة، ذلك الإقرار الخطير -المتأخر للأسف- إن حياتهم كانت لا تختلف كثيرًا عن حياة الحيوانات.

بفارق كبير: هو أن الحيوانات ليست مكلَّفة، ولا تحاسَب على أنها تسلِّم القيادة لغرائزها...

بينما الأمر معهم مختلف.

بالتحديد: كان هذا هو جوهر امتحانهم، أن يكون هناك معنى لحياتهم مختلف عن حياة الحيوانات. أن تخرج بحياتك من ذلك النطاق الضيق الذي نشترك فيه مع الحيوانات، إلى فضاء أرحب وأسمى وأوسع...

كان يجب أن يكون... لولا أن...

***

«يا ليتني كنت ترابًا»؟

نقول أشياء مشابهة في لحظات يأس وندم، أحيانًا نقولها بالنيابة عن قرارات لم نتخذها بالأساس. ليتني لم أولَد. ليتني لست في هذه الحياة. كلمات تفلت منا عندما تحاصرنا الهموم والأزمات ويقيم اليأس بيننا، ولو لفترة عابرة.

وغالبًا ما تكون لحظات الندم من هذا الحجم عابرة. نواصل بعدها الحياة، بعضها يترك أثرًا، وبعضها يُنسى تمامًا.

لكن بعض اللحظات يمكن أن تصبح أبدية. لحظة الندم هذه قد تصبح كذلك. الشعور بأنك لو كنت ترابًا يطئه المارون لكان أفضل لك، سيكون عذابًا لا يقل عن عذاب الحريق. سيكون حريقًا مستعرًّا في الداخل، شعورًا خانقًا بالندم الدائم لأنك امتلكت فرصة -دامت حياتك كلها- ولكنك أضعتها.

سيكون عندك الأبد كله لتندم على ذلك.

لكن ما دمت تقرأ هذا الآن، ما دمت على قيد الحياة، مهما كانت قيودك الأخرى، فلديك فرصة ألَّا يكون هذا الندم الأبدي هو النبأ العظيم لحياتك.

وأنت تعرف ماذا عليك أن تفعل.

***

لكلٍّ منا نشرة أنباء خاصة به، تضج بالأخبار، بعضها سارة، وبعضها حزينة، وبعضها محايدة. هذه هي الحياة بحلوها ومرها.

لكن من الضروري جدًّا أن تعرف أين هو النبأ العظيم في نشرة أنبائك.

النبأ الذي يحرِّك كل الأنباء الأخرى ويفسِّرها، ويجعل لها معنى.

النبأ الذي يحمل معنى وجودك في هذه الحياة، هدفك فيها، وما قدَّمتَه لهذا الوجود وهذا الهدف.

كل الباقي مجرد تفاصيل في النشرة.

***

وأخيرًا يا عزيزي أنا...

ربما النبأ الأعظم هو ألَّا تقول في النهاية: يا ليتني كنت ترابًا.

النازعات: عملية التدخُّل السريع

عزيزي أنا:

ستحاصرك الحياة أحيانًا، في أكثر من جبهة في آنٍ، وأكثر مما كنت تتوقع في كل جبهة. ليست نبوءة مني. هذه هي الحياة، وهذا هو دأبها، وهذا حالنا معها، وهذا هو جوهر وجودنا فيها، إنها امتحان، ننسى ذلك أحيانًا، لكن هذه هي الحقيقة: الامتحان، دائم، مزمن، مستمر.

في خضم ذلك، سيبدو لك أحيانًا أن الأمر أصعب من كل الاحتمالات، وأنها أكثر من قدرتك على الاحتمال.

ستفكر في الراية البيضاء. تريد أن تعلن استسلامك وهزيمتك.

تريد أن تغرق لينتهي الأمر.

لكن، بينما يكاد يحدث ذلك، سيكون هناك من يتدخل لينقذك.

***

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا ٥﴾ **[سورة النازعات].**

ثمة شيء يحدث تنبِّهنا السورة له، شيء خطير، وهناك من يتدخَّل بسرعة، ثمة نشاط في الأمر، وسباق، وتخطيط وتدبير.

وقبل كل ذلك هناك من غرق، وهناك «النازعات غرقًا»، كما لو أن هناك من يحاول انتزاع الغريق من غرقه.

المشهد كله يمكن أن نراه من هذه الزاوية: أحدهم يكاد يغرق، محاولة لإنقاذه، نشاط، سباحة، سبق، تخطيط.

نعم، هناك من يوشك على الغرق.

وهناك محاولة جادة، منسَّقة ومخطَّط لها بدقة لإنقاذه.

من هذا الغريق وما أهميته بحيث إن محاولة إنقاذه تحتل هذه المكانة المتقدمة في السورة؟

لا نعرف.

نحن نحاول أن نتبيَّن هوية الغريق، ولكن سيحدث فجأة ما ينسينا الغريق:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ **[سورة النازعات].**

سنسمع صوتًا يشبه قرع الطبول. ننصت قليلًا، لعلَّه صوت دقات قلوب، بل هي كذلك فعلًا: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾. **[سورة النازعات].**

سنسمع حوارًا يدور كالهمس بين صوت القلوب والطبول، حوار مستنكِر لإمكانية ما يحدث أصلًا:

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾ **[سورة النازعات].**

سيخيَّل إليك أنك تعرف أصوات المتحدثين وتميِّزها. لوهلة سيأتيك هاجس أنك جزء من هذا الحوار. تتذكر صوتك عندما سمعتَه في رسالة سجلتَها. هذا الصوت يشبهه. ستنتابك مشاعر الدهشة والخسران، وتتمنى لو أنك كنت مخطئًا، لا، لست هنا في هذا الحوار، يجب ألا أكون متفاجئًا من شيء، أنا مؤمن أنه سيحدث. هذا

الصوت يشبه صوتي، مجرد تشابه أصوات، لكنه لست أنا.

بينما تأتيك هذه التساؤلات سيأتيك حديث موسى ليأخذك منه.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾ [سورة النازعات].

أتاني قبلها وأتاني الآن، لكن هذه المرة يبدو الحديث مختلفًا. حديث موسى سيقود فورًا وتلقائيًّا إلى فرعون.

فرعون؟ ما الذي جاء به هنا في هذه اللحظات. ما لك وما له؟ كيف يكون الحديث عن فرعون ذا أهمية في سياق عملية الإنقاذ التي تجري في مقدمة السورة؟

فجأة يبدو لك فرعون بهيئة مختلفة. تراه تلك الأنا في داخلك؟ تراه فينا جميعًا بطريقة أو بأخرى، في تجبُّرنا، في طغياننا، في ظلمنا لأنفسنا أو لسوانا.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [سورة النازعات]. فرعون وحده فعل ذلك؟ أم أن داخل كلٍّ منا فرعونًا كامنًا يمكنه أن يفعل ذلك بشتى الأساليب والطرق؟ ألا تقول تلك (الأنا) أحيانًا جملًا مختلفة كثيرة لكن ترجمتها الوحيدة «أنا ربكم الأعلى»؟

ستذكر نهاية فرعون. لقد غرق. فرعون غرق!

تشهق كما لو أنك تعرف ذلك للمرة الأولى. أيكون هو المقصود في محاولة الإنقاذ التي افتُتحت بها السورة؟

لا. ذلك مستبعَد. فرعون غرق وانتهى الأمر.

أيكون المقصود بالمحاولة الفرعون الآخر؟ الفرعون القابع الكامن في أعماقنا؟ أيكون هو «فرعون» الأنا الذي يوشك أن يجرنا إلى الغرق مع سبق الإصرار والتعمُّد؟

تتأمل في آيات الافتتاح من جديد. هذه محاولة إنقاذك أنت. وأنت أيضًا في فريق الإنقاذ. أنت هنا وأنت هناك. أنت تنازع الغرق، تتعلق بقشة لو وجدتَها. بل تجرب أن تتعلق بسطح الماء، لعل وعسى.

وهناك من ينشط ليسحبك، يسبح بسرعة ويتسابق مع الزمن ومع نفسه ليصل إليك. هناك خطة محكَمة لإنقاذك من الغرق، لكن مهما كانت هذه الخطة محكَمة فلن تنقذك إلا إذا شاركتَ فيها، إلا إذا كنت أنت جزءًا من محاولة إنقاذك من الغرق.

***

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ

ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ
مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾
مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ [سورة النازعات].

يوهِمنا فرعون الأنا أننا أشد أهمية من كل ما حولنا، من الكون بأسره. لكن لحظة صدق واحدة أمام مرآة الحقيقة كفيلة بتذكيرنا بحجمنا الحقيقي. لسنا سوى ذرة في كون هائل الحجم. ليس هذا تتفيهًا لوجودنا، لكن ثمة حقائق لها أولوية وهيمنة على حقائق، وفي لحظات معينة على فرعوننا الكامن أن يتواضع أمام الحقيقة، أمام حقيقة أنه مهما طغى وتجبَّر وتكبَّر فإن هناك قوانين وضعها خالق هذا الكون عليه أن يطيعها، الشمس والقمر والنجوم والجبال والوديان والمجرات بكل ما فيها تطيع قوانين هذا الخالق، فمن أنت يا فرعون الأنا كي ترفضها؟

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ
يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ [سورة النازعات].

الأصل في معنى «الطامة» هو «علو الماء». جاء في لسان العرب طمم: طَمَّ الماءُ يَطِمُّ طَمًّا وطُمُومًا: عَلا وغَمَر.

أي إن الطامة هي اللحظة الفاصلة في الغرق، اللحظة التي يبدأ فيها العد التنازلي لأنفاسك الأخيرة. غرق من؟ فرعون أم فرعون الأنا أم أنت؟

لا. هذه المرة الغرق هو الغرق النهائي، الأخير، غرق الفرص الأخيرة. إنها الطامة الكبرى، العد التنازلي للنهاية النهائية الفاصلة هذه المرة. لا فرصة ثانية بعد الطامة الكبرى.

في تلك اللحظات يمكن لحياتك أن تمر أمام عينيك كشريط مثبَّت على السرعة القصوى. كل سعيك في هذه الحياة سيتكثَّف في ثوانٍ مركَّزة فيها كل ما أنجزت أو ما هدمت أو ما اقترفت أو كسبت. كل شيء في ثوانٍ فقط.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ **[سورة النازعات].**

إذن هو البحث الأخير النهائي عن المأوى.

ستذكر بحثًا آخر عن المأوى في لحظات مشابهة موازية.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾

[سورة هود].

إنها لحظة بحث ابن نوح عن مأوى آخر غير السفينة، جبل مرتفع يقيه من الغرق، الغرق مجددًا إذن.

الغرق يحاصرنا في هذه السورة منذ البداية، أو ربما الأصح تحاصرنا محاولات إنقاذنا من الغرق.

هذه المرة هناك أكثر من مأوى، واحد منهما هو الجحيم، والآخر هو الجنة، والفيصل الفارق بينهما هو التعامل مع تلك الأنا التي يمكن أن تتحول إلى فرعون متجبِّر متكبِّر. ترك فرعون الأنا ينفرد بالأمر سيقودك إلى المأوى فعلًا، لكن هذا المأوى هو الجحيم في هذه الحالة.

والسيطرة على هذا الفرعون ستقود إلى مأوى آخر، الجنة.

كيف يروَّض هذا الفرعون القابع في أعماقك؟

بصعوبة، بل بصعوبة بالغة.

بنهي النفْس عن الهوى.

وهذا أصعب أنواع النهي. يمكنك أن تستخدم النهي مع أبنائك أو موظفيك أو طلابك، فمكانتك تؤهلك لكي تستخدم هذا النهي.

مع النفس الأمر أصعب. النفس تقف أمامك مثل وجهك في المرآة. لن تستلم منك النهي لتطيع بسهولة. ستجادلك، ستبرِّر لك، ستنحاز بأفكارك إلى "هواها"، ستقدِّم لك الأدلة وتقنعك بما تجتزئه من معلومات لكي تقول لك: لا، هذا ليس «الهوى»، هذا شيء آخر. وتستخدم قائمة من التبريرات.

نهي النفس عن الهوى، مواجهة مع فرعون الأنا الذي طغى. قد تكون مواجهتك الأصعب في حياتك، أن تنهى نفسك عما تريد.

***

متى سيحدث كل ذلك؟ لا أحد يعرف. لكنه ما دام سيحدث، فالتوقيت مجرد تفاصيل.

وعندما سيحدث، ستكون الطامة الكبرى قد انتهت، وتجاوزنا مرحلة الغرق إلى ما بعدها.

مهما طال الزمن، سيبدو الزمن الذي مضى كما لو كان ساعات قليلة.

عشية أو ضحاها، يا عزيزي أنا، على أبعد تقدير.

عبس وتولى: عن أجمل تقطيبة جبين في التاريخ

عزيزي أنا:

في رحلتك في الحياة ستمر عليك وبك ومن خلالك مشاعر كثيرة، سيمر السرور، والفرح، والحزن، والحب، والكره، والغضب، والاسترخاء، والتأمل، والحيرة، والملل، والاستسلام، والقلق، والأرق، والألق، والثورة، والزهو، والخيبة، والأمل، والضجر، والعجز، والاستسلام، والسعادة، وتدرجاتها وأضدادها من الحزن إلى الاكتئاب.

كل ما ستشعر به من مشاعر ستجد طريقها إلى عضلات وجهك بطريقة أو بأخرى. تنتقل الإيعازات من الأعصاب إلى العضلات تحت جلدك لتعلن على شاشة وجهك ما يعتمل في دواخلك، غالبًا يحدث هذا على نحو لا إرادي، البعض منا تدرِّبه الحياة على إخفاء بعض هذه الإعلانات، لكن في الغالب كانت هذه التعبيرات توصِل الرسائل بين البشر بطريقة أخرى غير الكلمات.

بين كل التعبيرات التي تظهر على الوجه، هناك تعبير يجمع بين أكثر من شعور في آنٍ واحد، كما لو أن المشاعر تتصادم مع بعضها فيكون التعبير على الوجه نتيجة لذلك.

إحدى عشرة عضلة في الوجه تتلقى إيعاز تلك المشاعر المتصادمة مع بعضها، يقترب الحاجبان من بعضهما، ترتسم تجاعيد على الجبهة، وأحيانًا ينعكس ذلك على الفم، فترى الشفتين مزمومتين، ويزداد تحديق العينين.

يسمونه اختصارًا عبوسًا، ويعبِّر عن الاستياء والحزن والقلق والتركيز والحيرة. كل ذلك أحيانًا وبعضه في أحيان أخرى.

أظنك تعرف العبوس جيدًا يا عزيزي أنا، وتعرف خليط المشاعر التي يعبر عنها، ولكن هناك ما يمكن أن تعرفه أكثر.

***

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾

[سورة عبس].

للوهلة الأولى تبدو بداية السورة صادمة بعتابها للرسول الكريم -عليه أفضل الصلاة والسلام-.

للوهلة الثانية، تبدو صادمة بصراحتها وشفافيتها.

للوهلة الثالثة تبدو دليلًا إضافيًّا على صدق ناقلها لنا. عليه الصلاة والسلام. لو أن أيًّا منا تلقى عتابًا أو لومًا من رئيسه في العمل (دون تشبيه)، فإننا سنكون محرَجين من إعلان ذلك، هذه طبيعة بشرية تمامًا، سنأخذ الأمر بجدية بلا شك، لكن سنقول في أنفسنا: لا داعي لنشر الأمر. سنتكتم عليه كي لا يؤثر على مكانتنا عند الناس، وبخاصة إذا كنا نرغب في ترسيخ هذه المكانة.

لكن صِدق الرسالة والرسول يتجاوز هذه الطبيعة البشرية. نحن هنا ليس أمام رئيس ومرؤوس في العمل، لسنا أمام قائد بشري محرَج من خطأ ارتكبه، لسنا أمام زعيم بشري يريد حشد المزيد من التأييد لمكانته.

نحن أمام شيء آخر، بلا مثال مسبوق ولا معايير معَدة مسبقًا.

نحن أمام رسول يحمل رسالة من الخالق، ولا يمكن له أن يخفي شيئًا من هذه الرسالة.

***

عبس وتولى إذن، بصيغة الغائب، كما لو أن الحديث عن شخص آخر.

لهجة العتب واضحة في هذا الاستخدام.

ولكنها لا تستمر، تنتقل بعد آيتين إلى صيغة المخاطب: وما يدريك لعله يزكى؟

كما لو أن هذا الانتقال في الخطاب يقدِّم مواساة مع العتب. لا، لم يصل الأمر إلى أن تستمر صيغة الغائب. لا قطيعة في الأمر، لكن عتاب.

لعشر آيات سيستمر العتاب.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن

جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ [سورة عبس].

تخيل قلبه عليه الصلاة والسلام والآيات العشر المعاتبة تتنزل عليه. أيُّ حِمل؟ أيُّ موقف؟ ما يمكن أن يقال في أقل من دقيقة كان يبدو حتمًا مثل رحلة طويلة مرهِقة. أن يعاتبه ربه بعشر آيات. أيُّ حِمل ثقيل حمله قلبه في تلك اللحظات التي بدت حتمًا كدهر!

كم يبدو الأمر بسيطًا حين يُروى في «أسباب النزول»، لكن الله أعلم ماذا كان يحدث في النفس المحمدية الشريفة يوم استقبلت الآيات، أيُّ زلزال حدث فيها، وربما في كل مرة تلا فيها هذه الآيات بقلبه ولسانه الشريفين.

لكن تلك الآيات العشر كانت ضرورية، ضرورية لنا نحن، أن نتعلم أن الخطأ طبيعة بشرية، وأن تقويم هذا الخطأ وتصويبه ليس عيبًا أو منقصة، بل هو مما يعلِّمنا إياه هذا الكتاب لكي نتجاوز هذا الخطأ ونتعلم منه.

المخاطَب هو الرسول -عليه الصلاة والسلام- لكن الحديث موجَّه لنا جميعًا.

من باب أولى.

***

فلنتخيل أننا هناك، ضمن الأوائل، عددهم في هذه الفترة المبكرة ربما لم يتجاوز العشرين أو أكثر قليلًا.

تنزل السورة، ينقلها هو بنفسه عليه الصلاة والسلام. وفيها هذا العتاب، عتاب عن شيء لم نعرف عنه قبل أن ينقل لنا الرسول، بل إن الشخص الذي عوتب الرسول بسببه – الأعمى- لم يعرف بالأمر أيضًا.

كان الأمر خاصًّا جدًّا به عليه الصلاة والسلام، ربما لم يستغرق أكثر من ثوانٍ، تعبير على وجهه الشريف، وتغيير في مسار طريقه. أمر بسيط جدًّا.

لكن لا.

تنزل السورة لتعاتبه على هذا الأمر. وينقل هو العتاب إلى الجميع.

في منطق العلاقات بين البشر، هذا لا يحدث، بل غالبًا سيداري المسؤول على الأمر ليتجنب الإحراج.

ما حدث خلف الأبواب المغلقة، سيبقى خلفها.

أحاول تخيل ردود أفعال المؤمنين الأوائل، أيُّ قشعريرة أن يعاتب الله رسوله على هذا الأمر البسيط وأن ينقل الرسول هذا العتاب! لا مجاملات ولا تغطية على الأمر. أحاول تخيل شعورهم وهم يرون أن كل شيء يفعلونه، أو يفكرون فيه، سيُسجَّل وسيُحاسَبون عليه.

السورة مبكرة، تصوُّرهم عن الله وفهمهم لصفاته لم يكتمل بعد، وجاءت هذه السورة لتوضِّح لهم على نحو مباشر.

أحاول تخيل رد فعل عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذي نزلت فيه السورة عندما سمع الآيات. أيُّ شعور بالأمان انتابه وهو يسمع الله يعاتب نبيه فيه لأنه «تولَّى» عنه! لم ينتبه للأمر حين حدث -لأنه أعمى- لكنه كان يعرف حتمًا أن الناس عمومًا تهتم لكبار القوم أكثر مما تهتم لأعمى مثله، وهنا يشعر أن الغبن المزمن -الذي عاش عمره معه- قد أُزيح عنه، بل تحول الأمر إلى كرامة له. معدودون هم الذين نزلت فيهم سور بعينها، وكان هو من هؤلاء!

أحاول تخيل رد فعل غير المؤمنين أيضًا، إن كانوا يعتقدون أن محمدًا يكذب في أمر الوحي، فهل ينقل الكاذب عتاب ربه له هكذا؟ المنطقي أنه على العكس، سيؤلِّف -حاشاه- ثناء من ربه عليه، لكنه الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام. الوحي أمانة، وها هو ينقل عتاب ربه له إلى الجميع. هل جعلتهم الآيات يفكرون يا ترى؟ هل جعلت كبار القوم أمثال «عتبة بن ربيعة» أو أخيه «شيبة» (أو أيًّا من الأسماء التي من المحتمَل أنها كانت جزءًا من المشهد) يفكرون في أن هذه الدعوة ستهدر

مكانتهم إلى الأبد؟ وهل جعلت آخرين ينظرون إلى ما يحدث ويقولون: هذا أفضل، هذا أعدل؟

وهل لي إلا أن أتخيل كيف كان رد فعله الشريف وهو يتلقى الآيات؟ ها هو يرتقي أكثر وأكثر إلى الأعلى، وها هي الآيات تمد له الحبل ليتمسك به. هذا العتاب كان مؤلمًا بلا شك، لكنه كان علامة فارقة أيضًا للرسول -عليه الصلاة والسلام- كانت الآيات تحذِّره من المفاضلة بين أهمية ومكانة القوم في الدعوة إلى الإيمان الجديد. لا، الكل سواسية عندما يأتي الأمر لكلام الله. مكانة عتبة بن ربيعة –وقد كان سيد قومه- أو أيٍّ من سادات قريش يجب ألَّا تكون على حساب عبد الله بن أم مكتوم لمجرد أنه أعمى، على العكس، مكانة عتبة قد تمنعه من الإيمان، ووضع الأعمى قد يجعله أقرب إلى الإيمان.

وقد كان.

***

نحن الذين لم نره عليه الصلاة والسلام، لا يمكننا إلا أن نتخيل.

نتخيله وهو يقطب جبينه. يعبس.

رغم العتاب، ينقلنا خيالنا إلى حاجبيه. نتعلق بهما كما يتعلق طفل بحضن أمه. أي تعبير يظهر على وجهه الكريم سيكون جميلًا مهما كان.

هل يكون العبوس جميلًا؟

نعم، يكون، عندما يظهر على وجهه هو، عليه الصلاة والسلام، عندما يعكس حقيقة إنسانيته، عندما يقرِّبه العبوس منا، يجعلنا نفهم طبيعته الإنسانية أكثر، ونتلمسها في تعبير ظهر لا إراديًّا على وجهه، وعاتبه الله عليه.

نعم يكون العبوس جميلًا، عندما يكون مرتبطًا بموقف إنساني، من أجل كلمة حق، من أجل قضية، لم يكن عبوسه من أجل شيء شخصي عابر، لم يكن بسبب الملل أو الضجر أو شعور سلبي غير مبرَّر تجاه شخص ما، بل كان من أجل الإيمان.

صحيح أن هذا العبوس –في هذا السياق– لم يكن موافقًا لمعايير عالية حدَّدها عز وجل لمقام الرسول الكريم، لكننا نستطيع أن نفهم أنه حتى في عبوسه هذا، كان كريمًا عالي الخلق، وكان يريد أن ينشر الإيمان، بل إنه حتى في هذا العبوس لم يجرح أحدًا، لأن من عبس في وجهه لم يرَ هذا العبوس.

حتى عبوسه كان كريمًا، كان جميلًا، كان يجعلنا نتعلق به أكثر وأكثر، ونحبه أكثر وأكثر.

نتعلق بعبوسه، بجبينه الذي قطبه في لحظة صدق إنسانية –دون أن يجرح أحدًا أو يهينه– ونعرف أن هذا العبوس النبيل الذي عوتب عليه قد نقله إلى مرتبة أعلى وأرقى لم يصل إليها إنسان من قبل.

وأنه جعلنا نحبه أكثر، لأننا رأينا منه جانبًا إنسانيًّا ما كنا سنراه لولا هذا العبوس النبيل، وهذا العتاب الجميل.

***

مشهد العبوس يمكن أن يتكرر، غالبًا يحدث دون النُّبل والجمال الذي كان في عبوسه عليه الصلاة والسلام، ويمكن أن يحدث لنا في مجالات مختلفة. لدينا قضية نؤمن بها، وندافع عنها، ونريد من الناس أن يؤمنوا بها أيضًا. وهناك شخصان، شخص غني مؤثِّر له مكانة اجتماعية عند قومه وبين ناسه، له «عزوة»، وشخص آخر فقير، بسيط، بل وأعمى.

بحسابات الإدارة والتجارة والحياة اليومية: الشخص المؤثِّر له أهمية أكبر، ذلك أنه لو اقتنع بما تؤمن به، فإن احتمالية أن يؤدي ذلك إلى أن يتبعه عدد كبير ممن يتأثرون به واردة جدًّا.

أما لو كان هذا الشخص فقيرًا، مهمَّشًا بحسب المعايير السائدة، من عائلة بسيطة، وزِد على الأمر أنه «أعمى»، فدائرة تأثير إيمانه ستكون غالبًا محدودة.

يشبه الأمر أن يشارك منشورَك شخصٌ لديه مليون متابع على السوشيال ميديا.

وأن يقرأه شخص لا يتابعه أحد.

صحيح؟

لا، ليس صحيحًا، البتة.

هذا المثل قد يكون صحيحًا بمقاييسنا المادية، مقاييس الترويج للسلع والحاجيات، بل وحتى الأفكار.

لكن هذه الرسالة مختلفة، ليست جزءًا من منهج التسويق ولا ينبغي أن تكون كذلك.

***

فلنتذكر هنا أن اللهجة التي ابتدأت بها السورة ستبقى توجِّهنا ونحن نتابع القراءة في الآيات، كما لو أن العتاب مستمر. نقف جميعًا كما لو أننا ننتظر أن يأتي دورنا في التقريع. نحن نفعل أكثر من هذا بكثير. هل اللهجة غاضبة فعلًا؟ أم أن بداية السورة هي التي تجعلنا نعتقد ذلك؟

«كلا»، ستقول الآيات، وسيؤكِّد ذلك شعورُنا، فـ «كلا» تفيد الردع والزجر والاستنكار. سنقف لنترقب ماذا سيأتي بعد هذا الزجر.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢﴾

[سورة عبس].

هذه الرسالة «تذكرة».

ما الذي يعنيه ذلك؟ لماذا هي تذكرة؟ هل لأنها تذكِّرنا بما في الصحف الأولى؟ أم لأنها تذكِّرنا بما هو مغروس فينا بعمق؟ كل ما هو أصيل في فطرتنا سنُذكَّر به عبر «الذكر». الذكر الذي يمكن أن يمسح ما يتراكم على نفوسنا مما نكتسبه مما نتعرض له، يأتي الذكر – إن سمحنا له– ليمسح عنا كل ما هو ليس من فطرتنا، ويعيدنا إلى درب فطرتنا الأولى.

الرسالة «تذكرة» مثل حقنة تعيد لنا ذاكرتنا المفقودة، نحن غالبًا نعاني فقدان ذاكرة لا نعرف عنه شيئًا، ونتعامل مع مفردات حياتنا اليومية كما لو أننا بلا ماضٍ، بلا فطرة، بلا كيان سابق لما تراكم علينا. نعرف أسماءنا وأرقام هواتفنا وعناويننا، ولكننا لا نعرف ما قبل كل ذلك، لا نعرف ما حُفر فينا كبشر قبل ذلك، لا نعرف

ما نحن مفطورون عليه، ولا نعرف أصلًا أن هناك شيئًا كهذا.

ثم تأتي التذكرة، مثل حقنة في العظم، موجِعة بلا شك مثل عتاب مؤلم من حبيب، ولكنها مما لا بد منه.

***

التذكرة تذكِّرنا بما هو منطقي تمامًا، ويجب أن يكون في مكان ما من فطرتنا، الأولوية ليست للمكانة الاجتماعية أو الثراء أو التأثير أو الشهرة. الأولوية لمن يرغب أن يكون الأول. لمن يتذكر بهذه التذكرة. هذه العلامة الفارقة الوحيدة. كل باقي تفاصيل الاختلاف غير مهمة. الكل سواسية ابتداءً. المال والشهرة والمكانة لا تغيِّر من ذلك قيد أنملة. ما يغيِّرها فقط هو رغبة الشخص نفسه في الإيمان، هنا يصبح «الأول» و«الأهم».

ولعل الحكمة الإلهية قد تجلت في حقيقة أننا لا نعرف على وجه التأكيد من هو هذا الذي استغنى وتصدى له النبي -عليه أفضل الصلاة والسلام-، فقد ضاعت هويته في تفاصيل الأحداث، واختلف فيه المفسِّرون، فقال البعض إنه الوليد بن المغيرة، أو عتبة بن ربيعة، أو شيبة بن ربيعة. أو أمية بن خلف.

أما «الأعمى» فهو عبد الله بن أم مكتوم. لاحقًا أصبح من أوائل المهاجرين إلى المدينة، وكان مؤذنًا للصلاة مع بلال بن رباح، وولَّاه الرسول الكريم على المدينة عندما كان يغيب عنها في الغزوات، وكان حامل الراية في معركة القادسية، واستُشهد فيها.

كلا إنها تذكرة.

والمعيار الوحيد هو التذكُّر.

***

لكن ثمة ما يمكن أن يكون «ضد هذا التذكُّر».

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾ **[سورة عبس].**

ولعل الكفر هنا بمعناه اللغوي الأصلي أي ما أشد رفضه وجحوده! ما أكثر نسيانه!

فلننتبه هنا: التذكر ضد النسيان، التذكر نوع من أنواع السيطرة على النفس والتحكم بها.

والكفران هو نسيان ذلك، ترك العنان لنفسك، لأناك، منتزعًا كل الكوابح التي تتيح لهذه النفس النمو في مكان أفضل.

ما العلامة الأهم لكفران هذا الإنسان؟ لنسيانه؟

هذا الإنسان يرى بأم عينيه أن الأرض تنشق لتخرج له ما يعيش عليه، وأنها تحتوي على ثروات وموارد خام تجعل حياته أسهل.

لكنه ينسى هذه الحقيقة الماثلة أمام عينيه، ويقف أمام فكرة نشوره بعد الموت ليقول: أيُعقل هذا؟

وكل ما سبق؟ منذ كنتَ نطفة إلى أن وقفتَ لتجادل، كان يُعقل؟ كل هذا كان «طبيعيًّا» و«لا إعجاز فيه». لكن ليس «بعثك بعد الموت»؟

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾ عندما يكون هكذا طبعًا.

***

العتاب واللوم الحقيقي هو للنفس البشرية التي تتوهم أنها قادرة على التخطيط لكل شيء، فتخلط مقاييس الدنيا بمقاييس الآخرة، ولكنها تحتاج بين حين وآخر إلى تصويب وتصحيح.

أو إلى تذكير...

﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾ [سورة عبس].

«تقدير» النطفة يعني أشياء كثيرة محتمَلة، منحها القدرة أولًا، بدأ الأمر بنطفة، ثم منحها الخالق من لدنه

قدرات عظيمة، قدَّرها، ولكن المعنى أيضًا يحتمل أنه عز وجل قدَّر لكل نطفة إمكانات وقدرات مختلفة، ويحتمل أيضًا معنى تقدير مسارات مختلفة لكل نطفة.

في كل الأحوال: هذا الإنسان –النطفة– له قدرات مقدَّرة بتقدير مسبَق لا يعلمه إلا خالقه، وهي قدرات تكفيه في تحقيق أن: ﴿يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾ **[سورة عبس]**.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾...

في سورة النازعات التي سبقت هذه السورة جاءت الطامة الكبرى، الماء وهو يعلو كل شيء ويجلب الغرق الأخير.

هذه المرة تأخذنا السورة إلى الصاخة.

الصاخة مختلفة.

الصاخة هي الصيحة التي تصم الأسماع، صيحة عالية جدًّا بحيث تفقِد السمع. لكنها ليست مثل الغرق أو الحريق. بعبارة أخرى: ليست «قاتلة». هي صيحة عالية جدًّا. رغم ذلك فهي تجعل البشر يتخلون عن «عزوتهم»، عن المجموعة التي يستمدون منها الحماية، ويقدِّمون لها الحماية في الوقت ذاته. تعوَّد البشر عبر تجاربهم في الصراع من أجل البقاء على أن البقاء ضمن «المجموعة»

يمنحهم فرصًا أكبر للنجاة، وقد كان بالفعل، على الأقل في أغلب الأحيان. هكذا تبرمجوا عبر التجارب السحيقة في القِدم، وهكذا نجوا واستمروا في النجاة.

لكن ها هنا تأتي الصيحة التي تجعل الذي يواجهونه الآن مختلفًا. هو مجرد صيحة. لا غرق ولا حريق. لكنها صيحة جعلتهم يتركون كل شيء مما كان يحميهم ويحمونه.

ربما كانت هذه الصيحة تراكمًا لكل همسات التنبيه والتحذير التي سمعتَها في حياتك، وتجاهلتَها وآثرتَ أن تنصت للضجيج وتساهم فيه. ربما كانت هذه الصيحة هي التحصيل الحاصل لهمسات العتاب التي تجاهلتَها لأنها كانت تمسُّ أشياء صغيرة، ثانوية، لكن الصغير يكبر، وما كان ثانويًّا يمكن أن يتغير ليؤثر على الأولويات.

لقد جاءك كل ما كنتَ تبخل بسمعك عليه، كل ما كنتَ تتجاهله.

جاءك ليأخذ سمعك، حرفيًّا، عبر «الصاخة». تأتي لتطيح بالمكانة التي تجعل فلانًا أهم من سواه.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة عبس].

الأخ، الأم، الأب، الزوجة، الأولاد...

تعبس لو تعرض أيٌّ من هؤلاء لسوء.

بل قد تفعل أكثر بكثير من مجرد العبوس.

في سياقات أخرى، أخروية تمامًا: ستفر منهم.

***

وكما بدأت السورة بتعبير نبيل على وجهه الشريف عليه الصلاة والسلام...

تنتهي بتعابير على الوجوه أيضًا.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ [سورة عبس].

فاختر التعبير الذي تعتقد أنه يناسبك أكثر، يا عزيزي يا أنا.

التكوير والانفطار والانشقاق والزلزلة:
تُطبق الشروط والمواصفات

عزيزي أنا:

من أهم خبرات الحياة المعاصرة التي يرضعها الإنسان الحديث منذ نعومة وعيه هي التعامل مع ما يُعرف بالشروط والمواصفات التي تضعها الشركات المصنِّعة للسلع.

هذه الشروط والمواصفات غالبًا ما تُكتب بحروف صغيرة غير مقرؤوة في طرف صغير، وُضعت على هذا النحو خصيصى لكي يكون الأمر ذرًّا للرماد في الأعين،

رفعًا للعتب، أو بعبارة أصح: رفعًا للمساءلة القانونية. الشركات ومحاموها وخبراؤها القانونيون يضعون «الشروط والمواصفات» لكي يضعوك أنت في زاوية ضيقة لا يمكنك فيها مقاضاتهم أو محاسبتهم لو أنك تعرضت لضرر ما نتيجة لاستخدامك لمنتجهم.

«الشروط والمواصفات» دومًا لصالح الجهة المنتِجة، وعليك بطريقة ما أن تجد لك ثغرة من خلالها، أو أن تطبِّقها بالضبط كما هي.

يحدث ذلك مع كل الجهات المنتِجة بلا استثناء. لا يُعقَل منطقيًّا أن تضع الشركات شروطًا لغير مصلحتها. كل شيء لصالح الشركات الصانعة للمنتَج.

هذا ما نعتاده من الشروط والمواصفات، لدرجة أننا لم نعد نهتم بقراءتها.

لكن هناك صانعًا واحدًا، واحدًا فقط، يضع الشروط والمواصفات لصالحك أنت.

وهو يضعها بأحرف كبيرة تملأ البصر، ويشير إليها في كل مفترق طرق لكي تنتبه لها.

هذا هو صانعك يا عزيزي أنا.

وشروطه ومواصفاته لصالحك أنت.

***

أربع سور من قصار السور القرآنية، تبتدئ بـ (إذا...) ويكون الحديث فيها عن يوم القيامة.

السور تبدأ بـ (إذا) حدث كذا وكذا، وإذا أداة شرط تحتاج إلى جواب، إذا حدث كذا فسيحدث كذا.

الشروط في هذه السور كانت تخص «الكون» وما سيحدث له في يوم القيامة، أما جواب الشرط فيخصنا نحن، يخص كل البشر على نحو فردي وشخصي، كما لو أننا مركز الأفعال في هذه الأحداث الكونية.

في الحقيقة: نعم، نحن مركز الحدث في اليوم الذي سيكون الأهم في تاريخ الخليقة، يوم القيامة.

***

تتشابه هذه السور في أنها ابتدأت بنسق عن أحداث متسلسلة في يوم القيامة، وربطت هذا النسق بأداة شرطية: إذا.

وكلها في جزء عمَّ.

تسلسلُ نزولها كان موزَّعًا على مدة نزول الوحي.

التكوير نزلت أولًا، وكانت من السور المبكرة، إذ إن تسلسل نزولها كان السابع.

ثم نزلت الانفطار والانشقاق متتاليتين، في وقت متأخر من الفترة المكية، قبل الهجرة. الانفطار بالتسلسل

82 والانشقاق بالتسلسل 83، على بُعد سورتين فقط من المطففين، آخر ما نزل في مكة، وقيل إنها نزلت في الطريق بين مكة والمدينة.

أما الزلزلة فقد نزلت بعد فترة في المدينة، وتسلسلها هو السابع، ولكن ما تسبقها من السور كانت من طوال السور (البقرة، آل عمران، النساء) وتسبقها الأحزاب أيضًا، مما يعني أنها نزلت بعد غزوة الخندق على الأقل، في منتصف الفترة المدنية.

هذا التسلسل والتوزيع الزمني سيساعدنا أكثر في فهم أثر كل سورة على حدة.

وفي فهم الأثر المتراكم لها مجتمعة.

الحركة الأولى: التكوير

سورة التكوير هي أول سورة في القرآن تتحدث بالتفصيل عن يوم القيامة.

الحديث هنا عن تسلسل النزول، وهذه هي السورة السابعة نزولًا، كانت هناك إشارات إلى يوم القيامة في السور الست السابقة، لكنها كانت عامة جدًّا دون تفصيل، مثل:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ [سورة المدثر].

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ۝١٨﴾ [سورة المزمل].

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [سورة الفاتحة].

يمكن اعتبارها مثل إشارات ممهِّدة لما سيأتي، تنبيهات وعلامات تحذير تمهِّد العقل المؤمن ليوم سيحدث لا محالة.

وكانت سورة التكوير هي التي جاءت بالتفاصيل.

***

سيبدأ كل شيء بالظلمة.

كما لو أن أهم الأشياء لا يمكن أن تُرى إلا عبر الظلام.

سورة التكوير تقدِّم لك العالم مظلمًا. تخيل أن تستيقظ لتجد العالم غارقًا في ظلمة لا نهائية. الشمس التي كُورت هي شمس ذهب نورها. بالضبط التكوير هو «اللف»، يقال كُوِّرت العمامة أي لُفَّت، وغير بعيد عن هذا استخدام الفعل أيضًا لمعنى دخول شيء على شيء كما

في: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [سورة الزمر آية 5].

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ [سورة التكوير].

شيء ما التفَّ حول الشمس إذن، كوَّرها، بحيث ذهب نورها.

والنجوم كذلك، انكدرت وذهب نورها.

العالم غارق في الظلمة إذن، فجأة، تستيقظ لتجده كذلك. أين مصادر الضوء الأخرى التي اعتدتها؟ ذهبت كلها. انطفأت جميعًا فجأة ووجدت نفسك في دوامة ظلام لا سبيل للرؤية فيه.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤﴾ [سورة التكوير].

تحاول أن تتحسس العالم من حولك. لا شيء يبدو في مكانه مما اعتدتَه. لكنك ستشعر أيضًا بحركة عظيمة. ما الذي يحدث؟ لن تفهم فورًا، لكنها الجبال تتحرك. لن تفهم ذلك في الظلمة. لكن الأمر مهول لهذه الدرجة. الجبال تتحرك. الكثيرون منا لو حدث شيء كهذا يمكن أن يعتقد أن الأمر «محليٌّ» يخص هذا الموقع الذي

نعيش فيه، وسنحاول أن نجمع «ما خف حمله وغلا ثمنه»، لكن لا، ليس هذه المرة، النوق الحوامل هي أغلى ما يملكه عربي مما يمكن حمله والتنقل به. الناقة في شهر حملها العاشر، أي قضت أكثر من ثلثي مدة حملها. بمفاهيم اليوم هي مثل سيارة حديثة باهظة الثمن تحمل في أحشائها سيارة أحدث بسعر أعلى. لكن حتى هذه «تركها» أصحابها سائبة في ظل ما يحدث، لقد انهارت قيمة كل شيء، السوق والعملة انهارا بلغة هذه الأيام. المصارف أفلست. العقارات هبطت أسعارها. كل شيء أصبح لا قيمة له في هذه الحالة. سوق كل شيء «ماتت».

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ **[سورة التكوير].**

العالم انقلب بالفعل، الوحوش التي تلوذ بالبراري منفردة بمن يضل طريقه وحيدًا أصبحت في حشر مع أمثالها، والبحار فاضت والتقت بعضها حتى غطت الصحاري، والنفوس فجأة وجدت نفسها تجتمع مع من يشابهها في «أفعالها»، وليس مع طبقتها أو نسبها أو ثروتها.

وفي كل هذه الظلمة وضجيجها، يُسمع سؤال واحد يُطرَح كما لو كان هو السؤال الوحيد الآن: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [سورة التكوير].

هي المؤودة التي دفنها بعض العرب آنذاك فقط لأنها أنثى، وربما هي كل بريء قضى تحت القصف والدمار دون ذنب جناه، تستطيع أن تسترسل فتذكر أيضًا أحلامك التي دُفنت تحت الواقع وخيباته وغدره، لكن تذكَّر أن أحلامك مهما كانت مظلومة لا يمكن أن تقارَن بأرواح بشر حقيقيين، دُفنوا أحياء، ذكور أو إناث، صغار أو كبار، قُتلوا ظلمًا دون أي ذنب، وسيسألون عن ذنبهم الذي قتلهم، كمقدمة لسؤال يُطرح على قاتلهم.

كل هذه المواجهات في هذا اليوم، المرتبطة بأداة الشرط إذا، كلها تصل في النهاية إلى جواب الشرط الذي تلتقي فيه كل النهايات وكل العلاقات.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ [سورة التكوير].

كل هذا لتصل إلى هنا، إلى مسؤوليتك عن كل شيء فعلتَه في حياتك، أو لم تفعله في حياتك. مسؤولية الفعل، ومسؤولية عدم الفعل حين كان يجب الفعل. كل شيء

سينتهي إليك: على ظهرك تحمل عملك كاملًا، وآن الآوان أن تواجه ما كنت تنوء بحمله، كل «الجمل الشرطية» التي ابتدأت بها السورة، ستصل إلى جواب الشرط ذي النصل الحاد الذي يوجَّه إلى عنقك. إلى الشروط والمواصفات التي ستطبَّق حتمًا، والتي ستكون لصالحك.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ **[سورة التكوير].**

كان لديك فرص كثيرة لكي تعلم، لكي تعدَّ ما ستحضر، والآن ربما سيكون الحساب ثقيلًا.

***

هل تعتقد أن الأوان قد فات؟

أنت مخطئ.

ستظهر الكواكب المتأخرة لتقول لك ذلك.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ **[سورة التكوير].**

بعض الكواكب لا تظهر للمراقِب لها إلا متأخرة في الليل، سيفهم من عدم ظهورها أنها متأخرة، لكن سرعان

ما تظهر كما لو كانت في مسارها طيلة الوقت. إنه أن تأتي متأخرًا خير من ألَّا تأتي أبدًا.

وهذا الليل الذي يبدو جاثمًا بظلمته على كل شيء، هو في الحقيقة يتحرك، يطوف، وبالتدريج سينسحب كما يفعل كل يوم، وها هو الصبح يتنفس من جديد بعد أن ظننتَ أنه مات دون أمل في النشور.

ها أنت ترى طريقك من جديد.

ثمة فرصة أخرى إذن، فرصة لكي تحضر ما ينفعك عندما تنتهي الفرص.

***

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة التكوير].

هناك جملة شرطية تحيط بكل المقدمات والبداية. جملة شرطية لا يمكن أن تكتمل إلا بجوابها، عندما يكون هناك «إذا»، فلا بد أن يكون هناك تتمة.

لا يمكنك أن تهرب من جواب الشرط. سيبقى ينتظرك في نهاية الجملة.

أين تذهب؟ لا مفر. جواب الشرط قادم لا محالة، وهو ما تعلمه جيدًا. ما فعلتَه في حياتك، ما أحضرتَه معك في نهاية الرحلة.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ [سورة التكوير].

سيخيل إليك هنا أن هناك مهربًا. ثمة شيء متروك لك، لكن لا تستعجل:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [سورة التكوير].

أنت محاصَر من كل الجهات. حتى في مشيئتك.

فأين تذهب يا عزيزي أنا؟

الانفطار: الحركة الثانية

بدأ الأمر مع الظلمة. الشمس التي ذهب نورها.

لكن في الحركة الثانية، الانفطار، يبدأ الأمر بالسماء....

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾ [سورة الانفطار].

السماء ستنفطر، ومن هذا «الفطر» ستتناثر الكواكب. أو هذا ما سنراه يحدث أمامنا يومها. هل هي الكواكب «الخنس، الجوار الكنس» نفسها التي ذُكرت في سورة

التكوير؟ لا نعرف. لكن الظلمة التي كانت علامة بارزة في سورة التكوير، والتي جعلتنا نتحسس ما حولنا لنكتشف تغيُّر كل شيء، هذه الظلمة لا تبدو مهيمنة على سورة الانفطار، نحن نرى يوم القيامة من منظار آخر وزاوية أخرى هذه المرة.

الفوضى هي أوضح ما نراه في هذه الصورة. البحار فُجِّرت؟ تفجرت من كل مكان واتصلت ببعضها.

البحار «سُجِّرت» في التكوير، أما هنا فقد «فُجِّرت». في التكوير البحار فاضت واختلطت مع بعضها. هنا بدأت تنفجر كالعيون، الأمور إذن تحتدم وتتزاحم.

في خضم كل هذا تأتي إشارة إلى «إذا القبور بُعثرت». من يفكر في الموتى الآن؟ الحي أبقى من الميت. أليس هذا ما سنفكر فيه؟ لكن بعثرة القبور ليست مجرد دمار يصيب شواهدها. بل هو مقدمة لما سيحدث.

رغم الفوضى، نحن نرى جيدًا. ولولا ذلك لما عرفنا أي فوضى حلَّت بالعالم. في الظلمة نستنتج، ندرك، نتحسس ما يحدث، لكن هناك كل شيء يبدو كما لو كان تحت ضوء ساطع.

ونحن نحتاج إلى هذا الضوء الساطع لنعرف ما معنا بدقة أكبر. هذه المرة جواب الشرط لا يتكلم عما أحضرتَه

من أعمالك في نهاية الرحلة. هذه المرة جواب الشرط يأخذك إلى المزيد من التفاصيل، المزيد من الشروط والمواصفات.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ **[سورة الانفطار].**

جواب الشرط هو مواجهة واضحة مباشرة مع ما قدمتَ وأخَّرتَ، مع أولوياتك. ليس مجمل ما فعلتَ، بل الأولويات، بالترتيب. ما قدمتَ، وما أخَّرتَ.

مواجهة واضحة وأكثر تفصيلًا، وتأتي مع جواب الشرط. لا مفر منها. سترى الأولويات و«التأخيرات» تحت ضوء كشاف ساطع. هل هي مبعثَرة مثل القبور التي مرت علينا قبل قليل؟ يبدو الأمر مرعبًا. بعثرة القبور، والأولويات.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ **[سورة الانفطار].**

ما غرك بربك الكريم يا أنا؟

الجواب موجود في الآيات. لقد «خلقك فسوَّاك فعدلك». غرَّك ذلك كثيرًا يا أنا. أخذتَ الأمور كما لو كانت مضمونة

دومًا. لم تحاول أن تتجاوز حدود ما تراه، لم تحاول أن تقرأ ما بين السطور. استسهلتَ أن تكون الأمور على ظاهرها، وأن يكون الموت «نهاية القصة». مخيف لكنه سهل. تحاول أن تتعايش معه. التعايش مع كون الموت نهاية الحكاية قد يصيبك بالاكتئاب، لكن هذا لا يبدو واضحًا في البداية، ولن يصيب الجميع بالتأكيد، وهو أقل جهدًا من أن يكون الموت محطة أخرى، لأن هذا يتطلب العمل على ذلك.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ **[سورة الانفطار].**

بالدين كله؟ نعم.

لكن هل عرفوا «الدين كله» كي يكذِّبوا به كله؟

هناك في الدين ما إن كذَّبتَه، ستكون كذَّبتَه كله، حتى لو صدَّقتَ وآمنتَ بأجزاء أخرى منه، لن ينفع، ما دمتَ قد كذَّبتَ جوهره، فالموضوع منتهٍ. اتفاقك مع تفاصيل في أجزاء أخرى لن يغيِّر شيئًا من ذلك.

ولقد كذَّبوا بالدين، عندما كذَّبوا بـ «يومه»، بـ «يوم الدين».

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ **[سورة الانفطار].**

يوم الدين؟ لقد سمعنا به مبكرًا منذ «سورة الفاتحة» «مالك يوم الدين». السورة التي نزلت مبكرًا في الفترة المكية، لكن ها نحن الآن في آخر هذه الفترة، بعد أكثر من عشر سنوات من نزول الفاتحة، نواجه هذا السؤال: ما أدراك ما يوم الدين؟

الصورة تكتمل بالتدريج لنعرفه.

أليس هو اليوم الذي تحدث فيه كل هذه الأهوال التي ابتدأت بها هذه السورة وسورة التكوير قبلها؟

لا. هذه مجرد تفاصيل لأحداث ذلك اليوم، أشراط لها أجوبة وتوابع.

الشيء الجوهري في يوم الدين مختلف. هو جوهر الدين أيضًا. والتكذيب لهذا الجوهر تكذيب لكل الدين.

كل ما سيحدث للشمس أو الجبال أو للكواكب أو البحار مجرد تفاصيل أمام الحقيقة الكبرى ليوم الدين...

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ **[سورة الانفطار].**

كل أحداث يوم القيامة هي مجرد تفاصيل ثانوية في الجوهر الأهم لما سيحدث: أن تقف أنت وأعمالك، وجهًا لوجه.

لا أحد سيملك لك شيئًا، ولا أحد سيكون مهتمًّا أصلًا بالتفكير في ذلك. كل نفس ستواجِه أعمالها.

ستواجه مسؤوليتها.

والأمر يومئذ لله..

أما الباقي فهو مجرد تفاصيل.

الانشقاق: الحركة الثالثة

بعد الانفطار، يحدث الانشقاق.

كما يحدث في حياتنا اليومية، يبدأ الأمر بفطر صغير، يكبر بالتدريج، ثم ليس من دون سابق إنذار على الإطلاق: يحدث الانشقاق.

فطر صغير في السقف أو الجدار، قررتَ ألَّا تعالجه ولا تحاول حتى معرفة سببه وجذوره، فضَّلتَ أن تغطيه بدهان جديد أو بورق الحائط، بدا ذلك أقل كلفة وأكثر يسرًا.

لكن الفطر كان يكبر ببطء وباستمرار، وعندما أصبح شقًّا كبيرًا متجاوزًا الدهان وورق الحائط، لم يكن بإمكانك أن تتظاهر بالمفاجأة.

لقد رأيت الانفطار، وكان عليك أن تتوقع الانشقاق.

كل ما مررنا به في حياتنا من مصاعب نتحمل مسؤوليتها حدث ويحدث على هذا النسق. يبدأ الأمر بفطر صغير، كما لو كان علامة إنذار وتحذير، كما لو أنه رسالة مبكرة تنبهك إلى ما سيأتي، لكن كثيرًا ما نتجاهل الأمر، ويكون علينا أن نتحمَّل عواقب هذا التجاهل.

ومع الانشقاق ستكون التفاصيل أكثر مشقة.

السماء التي كانت تسير حسب القوانين والسنن الكونية الموضوعة منذ خلقت، ستسمع الآن أمر الله المغاير لكل ما سبق. أَذِنتْ وحُقَّتْ. سمعتْ وأطاعتْ. والأرض ستتخلى عن تضاريسها، لا جبال، لا وديان، كل شيء سيكون ممدودًا بلا نهاية منظورة. الأرض أيضًا أَذِنتْ وحُقَّتْ، سمعتْ وأطاعتْ.

جواب الشرط سيأخذنا إلى الشروط والمواصفات: سعي الإنسان، كدُّه وكدحه. الحياة شاقة، وسعينا فيها يتطلب الكدح، والكدح في لغة العرب يفيد معنى الكد والكسب وأيضًا: الخدش. كما لو أن كل ما تفعله في حياتك مهما أنجزتَ، مهما حققتَ، مهما نجحتَ، أو مهما فشلت، كل ما فعلتَه ليس أكثر من مجرد خدوش على جدار الحياة، الجدار الذي يضم مئات الملايين من الخدوش الأخرى. كل ما ستفعله في حياتك، من خدوش لنفسك، أو لمن حولك، أو لمن أحبوك، أو لمن أحببتَهم

(على طريقتك)، كل الخدوش التي أتقنتَ إخفاءها، أو تعمَّدتَ إظهارها، أو تلك التي استخدمتَها كأعذار لأفعالك، كل ذلك سيأتي اليوم شاخصًا، لقد انشقت السماء، والأرض مُدَّت، وكل ما أخفيتَه أو تفاخرتَ به من أعمالك وخدوشك جاء اليوم خارجًا من ذلك الشق. كتابك سيكون بيانًا تفصيليًّا بكل ذلك الكدح وكل تلك الخدوش.

ستتمنى لو تلقي كل شيء وتتخلى عن كل شيء، كما فعلَت الأرض توًّا عندما «ألقَتْ وتخلَّتْ». لكن ليس لديك هذا الخيار للأسف. ليس الآن على الأقل. كان لديك سابقًا خيار الإلقاء والتخلي وتغيير مسار الكد والكدح وموضع الخدوش، حياتك كانت سلسلة مستمرة من الفُرص الثانية. الآن لا. أنت مرتبط بأفعالك ارتباط شجرة بجذورها، بل أكثر.

ستكون هناك إشارات مطمْئنة، أو مقلِقة، على حسب موضع كتابك الذي تحمله. غالبًا لن تتذكر معناها، أهوال ما يدور حولك ستجعلك لا تدرك تمامًا أن الكتاب في يمينك هو إشارة مطمْئنة. لكن ستستوقفك مقابلة بين سرورين. سرور من كان حسابه يسيرًا وينقلب إلى أهله مسرورًا، وبين بؤس وتعاسة من كان سابقًا في فترة

الاختبار **مسرورًا:** ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ **[سورة الانشقاق].**

هل السرور في الحياة جريمة تستحق العقوبة؟ هل طلب التعاسة في الدنيا ممر إلى سرور الآخرة؟

لا، فالسرور في هذه الحالة ليس مذمومًا بذاته، بل هو مذموم بتتمة الآية التالية التي تشرحه: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ **[سورة الانشقاق].**

سروره كان نابعًا من هذا الاعتقاد، ألَّا رجوع ولا حساب لما يُفعَل في هذه الدنيا. كان سرور العبث واللامعنى. هذا هو السرور الذي سينقلب بؤسًا وتعاسة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ **[سورة الانشقاق].**

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ **[سورة الانشقاق].**

بقايا ضوء الشمس عند المغرب، والليل وهو يدخل بالتدريج، والقمر يمر في أطواره طورًا بعد طور...

رأيتَ كل هذا في حياتك، كان من بدَهيَّات تلك الحياة، كان مما لا داعي لذكره لأنه يحدث كل يوم، ثم يتكرر، ويتكرر، تمر المراحل والأطوار أمامكم، ثم تعيد الكرَّة...

كل هذا، وأنت خارج الأمر يا أنا؟ خارج قوس؟ العالم كله مليء بهذا الرجوع المستمر إلى الطور الأول، وأنت؟ لن ترجع؟ تتجاهل أو تتناسى فكرة الرجوع لمجرد أنك لم تمر بها من قبل.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ [سورة الانشقاق].

ستمر بما يمر به ضوء الشمس عند الغروب. ستدخل الليل ظلامًا يبدو أبديًّا، وتدخل في المحاق كما يدخله القمر، هل تعتقد أن كل شيء سينتهي مع الموت؟ أحدهم أطفأ كل الأنوار وانصرف؟

لكن لا.

لا شيء يحدث هكذا في كل الوجود، فلماذا تعتقد أنه يحدث معك بالذات؟ تحديدًا مع المخلوق الذي تبدو حكايته حافلة بالمعاني أكثر من أي شيء آخر؟

﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ٢١﴾ [سورة الانشقاق].

السماء سجدتْ، أذِنتْ وحُقَّتْ، وانشقَّتْ.

والأرض سجدتْ. أذِنتْ وحُقَّتْ. مُدَّتْ. ألقتْ وتخلَّتْ.

فمن تظن نفسك يا هذا يا أنا؟

الزلزلة: الحركة الرابعة

تظن الأرض صلبة تحت قدميك يا أنا؟

تظن أن أمورك مستقرة، ثابتة، بناؤك راسخ متين؟

ربما.

لكن في لحظة واحدة قد يتغير كل شيء.

ربما رنة هاتف، رسالة من رقم مجهول، حادث سير بسيط بعواقب مثل كرة الثلج.

ربما شيء لم يخطر ببالك، ولم تحسب له حسابًا، يحدث دون ممهِّدات فيقلِب كل حياتك رأسًا على عقب.

كزلزال مخالف لكل التوقعات، يحدث خارج منطقة الزلازل، ودون أن ترصده أجهزة إرصاد.

في لحظة واحدة طويلة كالدهر، قصيرة كالومضة، يتغير كل شيء، وعالي الأشياء يصبح سافلها. في لحظة واحدة ستدرك مدى هشاشتك وركاكة قواعدك.

***

نزلت سورة الزلزلة بعد غزوة الخندق، وهي الغزوة التي شكَّلت بداية التحول في شكل الصراع بين قريش والمسلمين، حيث قال الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام-: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، حيث استنفدتْ قريش قدرتها على المبادأة بعد انكسارها في هذه الغزوة، وطُهِّرَت المدينة من جيوب التعاون مع قريش التي كسرت المواثيق التي سبق وأقرتها مع المسلمين.

الأرض أصبحت أكثر صلابة إذن، والمسلمون أصبحوا مهيَّئين بالتدريج لمرحلة مختلفة تمامًا، مرحلة الفتح.

لكن تنزل هذه السورة التي تشبه نسق السور المكية القصيرة (التكوير، الانفطار، الانشقاق) كما لو كانت تذكِّر المسلمين بالفترة المكية، كما لو كانت تشير لهم إلى الثوابت والأولويات في كل المراحل مهما اختلف الواقع المحيط وتحولت تفصيلاته.

في لحظة واحدة قد يتغير كل شيء.

استعد لتكون ثوابتك معك عندما يحدث ذلك، مثل حقيبة طوارئ تحمل فيها الضروري..

الضروري فقط.

***

في حياته، تستوقف الإنسان الأحداث مرات عديدة. يسأل نفسه: كيف وصلتُ إلى هنا؟ كيف وصلنا إلى هذا الدرك؟ ما هي النقطة التي بدأنا بعدها بالنزول؟

أحيانًا يصل إلى الجواب، وأحيانًا يضل الطريق إليه.

لكن في يوم ما، سيكون هناك سؤال مشابه في الجوهر، أكبر في الحجم، يوم يقف وهو يرى كل شيء ينهار أمام عينيه، ويسأل: ما الذي يحدث؟

﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ [سورة الزلزلة].

ستكون هناك أجوبة كثيرة، أجوبة فيها تشعبات في التفاصيل، وبعض التفاصيل ستكون حقيقة لا جدال فيها، لكنها حقيقة «تقنية»، «ميكيانيكية»، «مباشرة».

في النهاية ستصب كل الأجوبة، بكل التشعبات، بكل الاتجاهات، إلى جواب نهائي واحد:

﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [سورة الزلزلة].

كل هذا الذي يحدث، والذي يحاول جزء منا أن يؤجل ويجد تفسيرات بديلة له، كل شيء في النهاية سيتلخص، ستُحذف التشعبات والتفاصيل، تذوب أجوبة اللف

والدوران، ويبقى الجواب النهائي الحاسم، الوحيد: ربك أوحى لها.

وبعد هذا كله ستكون هناك مواجهة بين كلٍّ منا، وبين مئات الآلاف، ربما الملايين من الذرَّات.

واحدة واحدة. سنواجهها جميعًا.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ **[سورة الزلزلة].**

سنواجه كل شيء، ونرى كل شيء، لن نعرف المحصلة النهائية إلا في النهاية، لكننا سنمر على كل شيء.

ستكون هناك ذرات -أو أطنان؟- من شر لأشخاص ينتهي بهم المطاف إلى نهاية جيدة، لأن مقابل الشر كان هناك أطنان من خير.

وستكون هناك ذرات -أو أطنان- من أعمال خير لأشخاص فعلوا ما يفوقها على الجانب الآخر، سيرون الخير، ولكن...

وسيكون هناك نحن، وقلوبنا معلَّقة بكل ذرة، بكل مثقال من خير، نريدها أن تبقى، وألَّا يظهر أبدًا في أعمالنا ما يعاكسها.

ولكن... فمن يعمل مثقال... يره.

***

رباعية «إذا» في جزء عمَّ (التكوير- الانفطار- الانشقاق- الزلزلة) كلها تقدِّم «أشراط أو علامات الساعة» لكي تربطها بجواب الشرط الذي يختلف في كل سورة «علمت نفس ما أحضرتْ» (التكوير)، «علمت نفس ما قدمتْ وأخرتْ» (الانفطار)، «إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه (الانشقاق)، «فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره» (الزلزلة).

تعددت أجوبة الشرط، ولكن كلها تدور حول محور واحد: أنت مسؤول عن عملك. مسؤول. بالمعنى الحرفي للكلمة. بمعنى أنك ستواجه سؤالًا عن كل فعل. كل مثقال ذرة وصولًا إلى كل طن من أعمالك. صالحها وطالحها. ما قدمتَه منها وما أخَّرتَه. هذا هو جوهر الشروط والمواصفات التي وضعها صانعك لصالحك.

هذه السور التي ستكون جزءًا من ذاكرتك وضميرك ووجدانك، ستكرِّس فيك، أو يجب أن تكرِّس فيك -لو سمحت لهذه العملية بأن تحدث-، هاجس أنك مسؤول عن كل ما تفعله. لا تتهرَّب منه، إذ لا مفر، لا تلقِ باللوم على أي أحد، أو أي شيء، حتى لو كانت الظروف معقَّدة وقادتك إلى ما قادتك إليه:

أين تذهبون؟

لا مفر.

الماعون والهمزة والمطففين: الأفكار لها نتائج

عزيزي أنا:

انتبه لأفكارك... إذ إنها تتحول إلى كلمات.

انتبه لكلماتك... إذ إنها تتحول إلى أفعال.

انتبه إلى أفعالك... إذ إنها تتحول إلى عادات.

انتبه إلى عاداتك... إذ إنها تتحول إلى شخصيتك.

وانتبه إلى شخصيتك... ذلك أنها تحدد مصيرك[1].

(1) هذه الكلمات تُنسب أحيانًا إلى غاندي أو إلى بوذا أو إلى لاو تساو، لكنها على الأرجح تعود إلى فرانك أوتلو، رجل الأعمال الأمريكي والمؤسِّس لسلسلة محلات باي لو، المتوفى عام 1975.

كل شيء يبدأ من هناك، من الأفكار في الرؤوس، مما تؤمن به في رأسك ويصدِّقه قلبك، يتدحرج بالتدريج مثل كرة ثلج، وشيئًا فشيئًا يكبر ليتحكم بك ومن ثم يحدد مصيرك.

لا يقول لك أحد عن الأفكار إنها مجرد أفكار.

فالأفكار لها نتائج.

***

أغلب السور في جزء عمَّ تشترك في وحدة موضوعية واحدة، البعث، الحساب، المسؤولية الشخصية عن العمل.

هذه القضايا تشكِّل جزءًا مهمًّا من العمود الفقري للقرآن بكل أجزائه، لكنها في جزء عمَّ أكثر بروزًا وتركيزًا.

هناك ثلاث سور من أصل 37 سورة في جزء عمَّ، هذه السور الثلاث لديها ما يجعلها تربط بين البعث والحساب (المشترك في كل السور) مع الجانب الأخلاقي، جانب السلوكيات والتعاملات الشخصية.

السور الباقية ركزت على الإيمان، وعلاقته بالبعث والحساب، أي على الجانب العقائدي، ورؤيته للعالم من خلال الإيمان.

لكن هذه السور الثلاث تأخذنا إلى الجانب العملي، السلوكي، المكمِّل والضروري للجانب النظري.

هذه السور هي الماعون، والهمزة، والمطففين.

بهذا التسلسل.

حيث نزلت سورة الماعون بتسلسل 17، الهمزة بالتسلسل 32، أي بفترة مكية مبكرة نسبيًّا، وكانت «المطففين» آخر ما نزل في مكة.

«سورة الماعون»: الأنواع الأخرى من الكذب

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ [سورة الماعون].

في هذه الفترة، كانت الأغلبية «مكذِّبة بالدين»، المؤمنون كانوا قلائل.

لذلك فالجواب واضح عن هذا السؤال الذي تطرحه الآية.

رأيناهم «جدًّا».

لكن الآية لا تسألك عن هذا النوع من التكذيب، الصريح المباشر، تكذيب الكافر «المجاهر بكفره»، فهذا يمكن رصده ورؤيته بسهولة، وأكثر ما يسهِّلها هو أن صاحب هذا الموقف يعلنه صراحة.

الآية تتحدث عن التكذيب الآخر، التكذيب المراوغ، التكذيب الذي يعبِّر عن ذاته بالسلوك والفعل لا بالتصريح والجهر.

التكذيب الذي يختصر الطريق، فلا يدخل في نقاش أو جدال، بل يكتفي بالفعل «المناقض» للدين.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [سورة الماعون].

«دَعُّ اليتيم» ليس عملية «زجر» و«نهر» شخصية فحسب، بل هي مرتبطة بنظام اجتماعي ظالم كان يهمِّش بعض الفئات العاجزة، فقد كان عرب الجاهلية لا يورِّثون النساء ولا الصغار بحجة أنه لا إرث إلا لمن يحمل السيف، أي كانوا يدفعونهم عن حقهم، وهو قول القرطبي وغيره في تفسير الآية. فالدعُّ هو الدفع، والدفع هنا هو تهميش اليتامى والنساء وتعريضهم للظلم لمجرد أنهم الأضعف. «دع اليتيم» إذن كان عملية «ظلم» يشارك فيها هذا المكذِّب الخفي ولو بالرضوخ لعرف اجتماعي سائد.

لكن المثل الثاني «وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعامِ الْمِسْكِينِ» يتجاوز هذا، فالمثل الأول كان مشاركة في «فعل ظالم»، أما المثل الثاني فالسلب والتكذيب يكمنان في عدم الحث

على فعل إيجابي، أي إن الأمر ليس في «إطعام المسكين» أو «عدم إطعامه»، بل في الحض عليه، ولن يكفي هنا أن يطعم المسكين ليخرج من دائرة التكذيب بالدين، بل مطلوب منه أن يحض عليه.

إذن هنا التكذيب بالدين يرتقي إلى مرحلة أخرى: مرحلة خطرة، ليس باقتراف الظلم فحسب، بل بالوقوف تجاهه بحياد، بسلبية، بلا مبالاة.

فجأة يأتي تهديد قوي: لكنه لا يأتي للمكذِّبين «العلنيين» بالدين، الكفار صريحي الكفر، بل يأتي للمصلين!

﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ [سورة الماعون].

لماذا؟

لأن المصلين الذين لا يراعون أثر الصلاة والإيمان في أفعالهم وسلوكياتهم، لهم أثر سلبي لا يقل عن أثر المكذبين صريحي التكذيب، إن لم يكن يفوقهم أثرًا لأنه يضرب الإيمان من الداخل، لأنهم يأتون من منطقة غير معتادة وغير متوقَّعة.

لكن ما هو «السهو عن الصلاة»؟ أليس هو الغفلة عن أوقاتها وأركانها والحضور فيها؟

بلى، هذا صحيح، لكن لأن السورة نزلت قبل ربط الصلاة بمواقيت محددة بسنوات، فإن معنى السهو يمكن أن يتسع ليشمل أشياء أخرى كثيرة لا تلغي «الغفلة عن الالتزام بالوقت»، ولكن تضيف له أبعادًا أعمق وأوسع. تعددت الغفلة والنتيجة واحدة.

السهو هنا يمكن أن تكون «الغفلة» عن أثر الصلاة على سلوكنا وعن مقاصدها التي تتجاوز حدود هيئاتها وحركاتها إلى العالم المحيط. الغفلة يمكن أن تكون أن الصلاة قد تحولت إلى مجرد روتين، حركات اعتدنا أن نمارسها دون حضور حقيقي أو استحضار للمعاني الكامنة داخل هذه الصلاة، شيء اعتدناه فأصبح من «برنامجنا» اليومي لكن لا شيء أكثر من ذلك.

الويل للمصلين، الذين صلاتهم مجرد حركات دون أثر. الويل لنا.

«الويل» عبارة وعيد وتهديد شديدة، وتعني حلول الشر والعذاب، وقد سكَّنها «الموروث الإسلامي» باعتبارها «وَادٍ فِي جَهَنَّمَ لَوْ سُيِّرَتْ فِيهِ الْجِبَالُ لَمَاعَتْ مِنْ حَرِّهِ»، وهي لفظة مشتركة للسور الثلاث التي تحدثت عن السلوكيات في جزء عمَّ، إذ في كل منها تهديد بالويل، والبداية بدأت مع «المصلين» الذين غفلوا عن صلاتهم وجعلوها مجرد حركات دون أثر على السلوك، أي ليس مع تاركي الصلاة

مثلًا (ربما لهم مكان أسوأ؟) وربما دورهم لم يحِن في الشرح والتوضيح الآن، فتصحيح الممارسات الخاطئة أهم وأولى من تركها تتراكم على أخطائها.

لكن لماذا يحدث هذا؟ لماذا يمكن أن يغفل المصلي عن أهداف ومقاصد صلاته ويحوِّلها إلى مجرد حركات؟

ممكن أن يكون هناك خلل في الفهم، حيث يعتقد المصلي أن هذه الحركات وافية وكافية دون أي فعل خارجيٍّ ممتد، وهذا يقود منطقيًّا إلى الهوَّة التي نراها بين الفكر والسلوك، بفارق ألَّا هوة هنا في الحقيقة، لأن الفكر في هذه الحالة لم يجد ما يناقضه أصلًا وبالأساس...

وربما كان هو الأمل بأن هذه الصلاة ستكفِّر عن الفعل السيئ...

ويمكن أن يكون التعود قد أدى إلى هذا الخلل.

في البداية كانت الصلاة تقوم بدورها، وكان المصلي يجدها في سلوكه وأفعاله آمرًا أحيانًا مانعًا في أحيان أخرى، لكن بالتدريج، خبت الشعلة التي كانت دافعًا في البداية، وانقطع تأثيرها كما لم يكن.

وربما كان الأمر بمدخل من مداخل الشيطان عبر واحدة من دهاليز النفس وثغراتها[1]...

(1) للمزيد عن الموضوع سلسلة كيمياء الصلاة، للمؤلف.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦﴾ [سورة الماعون].

في سياق آخر، ستحدد الآيات هدف الرياء، وسيكون مرتبطًا بالنفاق (الذي لم يكن له وجود آنذاك لأنه لم ينشأ إلا في المدينة مع تحول موزاين القوى والعدد لصالح الإيمان).

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [سورة النساء].

ولننتبه أن «الرياء» هنا جاء مع الصلاة أيضًا، لكن فلننتبه أيضًا أن الآية وضحت أنهم «يراؤون» **الناس**، أي إنهم يصلُّون من أجل أن يراهم الناس وهم يصلُّون. وهذا بالضبط مثل نموذجي من أمثال النفاق.

كان هناك رياء آخر، **يرائي فيه البعض أنفسَهم**، يختزلون فيه الصلاة إلى حركات «مرئية» ويقنعون أنفسهم بأنهم يؤدونها –مجرد شيء يُرى من الأداء– مقطوع الصلة بأي شيء آخر غير مرئي (في أعماق النفس) أو بتأثيرات غير مرئية في المجتمع (حتى لو صارت مرئية لاحقًا).

يحدث هذا كثيرًا، نرى أنفسنا نصلي، ونقتنع، أو نقنع أنفسنا، **بأننا قد أديناها لمجرد أننا «نرى» أنفسنا نصلي.**

رياء النفس مع النفس، ربما هو الرياء الخفي، الذي يتسلل إلينا خلسة دون أن نشعر.

﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾ **[سورة الماعون].**

للوهلة الأولى سيبدو أن «منع الماعون» مشابه لمنع «عمل الخير» وإطعام المسكين الذي مر قبل قليل، لكن هذه النظرة مبنية على أن «الماعون» هو الصحن أو القِدر الذي نتناول فيه الطعام.

لكن الماعون في لسان العرب بالإضافة إلى «القِدر» أو «الآنية» التي استقر عليها معنى الماعون في أذهاننا، فقد كان الماعون –باتفاق جميع التفاسير– **يشمل الفأس والدلو، وقيل إن «الماعون» يعني المنفعة العامة.**

لكن، فلننتبه هنا إلى أن الماعون هو لفظ يشمل **جميع أدوات إنتاج في مجتمع ما**، فهذا ما كانه الفأس والدلو على الأقل في مجتمع فقير في تلك الفترة، بل إن العلاقة بين الفأس والدلو والآنية، وبهذا الترتيب بالذات يرسم دورة إنتاجية كاملة ممثَّلة في أدوات الإنتاج: فالفأس

يمكن أن يحرث الأرض، والدلو يمكن أن يسقي الأرض، ويمكن للآنية أن تحتوي ناتج ذلك كله[1]..

منع الماعون يعني منع حق العمل، ومنع الفقير من أن يكون قادرًا على إعالة نفسه، منع الماعون في هذا السياق يعني إبقاء الفقير والمحتاج مرتهنًا إلى صدقات «بقايا الطعام» وفتات الموائد، دون أن نمنحه فرصة أن يعتمد على نفسه ويطلق سراح نفسه من خانة صدقاتنا.

ترانا نريدهم أن يبقوا أسرى تلك الخانة كي نرضي أنفسنا؟ بأننا نفعل الخير عبر منحهم الطعام مما يفيض عن حاجتنا؟

الويل لنا، كل الويل، لو كانت هذه دوافعنا.

سورة الهمزة: كلمات مُحطِّمة

للكلمات قوة.

بعض قوتها إيجابية، تمنحك دفقًا من الحياة والمشاعر وتجعلك تعيد ترتيب حياتك.

لكن هناك أيضًا، كما لكل شيء، جانبًا آخر، هناك قوة «سلبية»، قوة «أذى»، قوة «تدمير»...

وبعض الكلمات تفعل ذلك وأكثر.

(1) للمزيد عن ذلك، كيمياء الصلاة للمؤلف، الجزء الأول: المهمة غير المستحيلة.

بعض الكلمات لها أجنحة، تجعلك تحلِّق معها، ترفعك إلى سابع سماء.

ولبعضها أيادٍ، تمدُّها لك لكي تسندك عندما تتعثر. تربت عليك وتواسيك عندما تشيح عنك الوجوه، تصفِّق لك عندما تكون بحاجة إلى تشجيع، تضغط على كفيك عندما تصافحك كي تشعِرك بالقوة.

ولبعض الكلمات مخالب وأنياب تجرحك وترقص على جراحك وتجعل من ألمك وليمة للهازئين والشامتين...

بعض الكلمات تخدشك بأعمق مما يبدو على سطحك المتجمل بالقوة والتحمل، تمضي الكلمة ويمضي قائلها، أو هكذا سيبدو من الخارج، لكن الخدش يبقى يحفر في أعماقك أخاديد ووديانًا، قد يسكت عن سطحك لسنوات، أو يزورك في المنام زيارات عابرة، ثم ينفجر ما تراكم منه في موقف دون سابق إنذار.

بعض الكلمات تترك على البعض منا خدوشًا وعلامات، تصبح بالتدريج جزءًا من علاماتك الفارقة نفسيًّا، لا تُرى بالعين المجردة، لكنها أصبحت جزءًا منك، من مخاوفك وعقدك ومشاعر اللاأمان والنقص في حياتك...

بطريقة ما، بعض الكلمات تضعك في زاوية ضيقة، توصد الباب، وتتركك وحيدًا، بلا مفتاح ولا نافذة...

لأجل كل هذا، وقبل قرون من ظهور مصطلح التنمر ومعرفة أضراره وآثاره...

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾ [سورة الهمزة].

***

هذا الهمَّاز اللمَّاز متنمر قديم، موجود في كل المجتمعات البشرية، عابر للأعراق والحضارات، يمكن أن يطعن في الوجه أو في الظهر، في الحضور أو في الغياب، طعناته بلسانه، لكن لسانه مسموم، ينفث كراهية وحقدًا، ربما يعبِّر عنها بكلمة أو مزحة أو حتى إشارة في ملامح وجهه، يحاول أن يحاصر «ضحيته» من كل الجهات، يوصِد كل المنافذ لكي يبقيها تحت سطوة كلماته، يتسلى بحيرتها ومحاولاتها.

لكن هذا المتنمر في حقيقته متنكر مفضوح، يرتدي قناع القوة لكي يداري نقاطَ ضعفٍ وعقدَ نقصٍ تعشعش في داخله، إنه ضحية أيضًا بطريقة ما، لكنه ضحية اختارت الطريق الخطأ في معالجة مشكلاتها، اختار أن يحمِّل أثقاله على الآخرين، يدفعه غالبًا شعور الحاجة إلى السيطرة والظهور بمظهر القوي القادر على الإيذاء وتحطيم الآخرين، غالبًا إلى الهرب من مشاعر لا أمان مزمنة يعانيها، مشاعر اللاأمان نفسها التي تدفعه إلى

أن يجمع المال ويعتبره «العدة» المناسبة لأي ظرف. لا أمان دون هذا المال، ولا أمان إلا مع المزيد منه، لأن المال يجلب السلطة والقوة والنفوذ، وهذا يجعل الكل يحترمونك، أو يتظاهرون بذلك على الأقل وهم يلتفون حولك، هكذا يفكر «جمَّاع المال»، المال سيحميه من أن يُترك وحيدًا مع مخاوفه وعقده وضعفه... ولكن «لا أمان» حتى لو بالمزيد من المال، لأن نقص الأمان قادم من ثقب أسود في داخله، وليس من ظرف خارجي يمكن مواجهته بالمال أو بالمزيد منه.

هذا الهمَّاز اللمَّاز الذي يعيب على فلان رقته أو فقره أو فشله أو ضعفه أو لثغته أو نظارتيه أو قصره أو وزنه أو أي «اختلاف» في ملامحه أو هيئته أو طريقة كلامه، هذا الهمَّاز اللمَّاز هارب من «حطام» ما في داخله، لكنه يهرب منه عبر تكوين حطامات أخرى في نفوس الآخرين الذين يهمز ويلمز عليهم، قد يبدو الأمر مجرد «تسلية» و«تمضية وقت» لكنه في الحقيقة يفعل ذلك ليداوي حطامه الشخصي ويجعله يبدو كقصر شامخ البناء يلتف حوله أصحابه مصفقين ومعجبين.

على أي حال، هناك مفاجأة في انتظاره.

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤﴾ [سورة الهمزة].

وحيدًا سيُترك في الحطمة، منبوذًا بلا أحد، هو الذي كان يتسول تجمع الآخرين حوله عبر «همز ولمز» ضحاياه، هو الذي كان يحرص أن يكون «مركز أي تجمع»، سيُترك منبوذًا في الحطمة.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [سورة الهمزة].

الآن تلتقي الحطام الحقيقي، لا الحطام في داخلك، ولا الحطام الذي سبَّبته لمن حولك، الآن تلتقي نارًا تحطِّم كل شيء.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾ [سورة الهمزة].

هذه النار تخترق كل شيء لتصل إلى قلبك، تذكر كيف كانت كلماتك تفعل ذلك وتصل إلى قلوب من جرحتهم بها؟ الآن النار لها مخالب وأنياب مثل كلماتك...

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨﴾ [سورة الهمزة].

هذه الحطمة التي تُركت فيها وحيدًا موصدة عليك من كل الجهات.

لا باب أصلًا هناك.

يذكِّرك هذا بشيء؟

سورة المطففين: بيان رقم 1

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾ [سورة المطففين].

نزلت السورة هذه في مرحلة دقيقة وحرجة.

كانت آخر ما نزلت في مكة.

أي إنها نزلت بينما كان أغلب المسلمين في مكة قد هاجروا إلى المدينة، باستثناء قلة قليلة، منهم عليه أفضل الصلاة والسلام بالتأكيد.

هنا، في هذا التوقيت، نزلت «ويل للمطففين».

سورة تتحدث في بدايتها عن «الغش في الميزان»، أو هذا ما يبدو على الأقل.

للوهلة الأولى: يبدو التوقيت غريبًا لأمر كهذا.

الاستغراب يكبر عندما نعرف أن السورة نزلت «عن» أهل المدينة، حيث جاء عن ابن عباس: «لما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا فأنزل الله -سبحانه- (ويل للمطففين) فأحسنوا الكيل بعد ذلك[1]».

إذن، «الويل» و«التحذير شديد اللهجة» كانا موجَّهَين للمدينة التي استقبلت المهاجرين والتي ستستقبل الرسول -عليه أفضل الصلاة والسلام-.

(1) سنن ابن ماجة 2223

فكر في الأمر: ستذهب طريدًا إلى مكان يمنحك الحماية والمنعة، وقبل أن تصل إلى هناك، تنزل هذه السورة التي تحذِّر أصحاب هذا المكان من سلوك يبدو أنه كان شائعًا بينهم.

لو تُرك الأمر لحسابات البشر، لربما فضَّلنا أن نؤجل هذا التحذير شديد اللهجة إلى أن «تستقر» الأمور على الأقل مراعاة لمشاعر «المضيف» ووجهه أمام الناس.

لكن لا، هذه حسابات مختلفة.

ويل للمطففين. بمعزل عن أي شيء. سواء كانوا من أهل المدينة أو مكة أو أي مكان آخر.

***

عند النظرة الأولى، ستقول: الأمر يتعلق بالموازين والمثاقيل والمكاييل.

وإن كنت في مهنة بعيدة عن «الوزن» و«المثاقيل» و«المكاييل» ستشعر بالراحة، هذا التهديد بالويل ليس موجَّهًا لك.

لكن في الحقيقة هو موجَّه للجميع.

وأصحاب المهن المرتبطة بالوزن والموازين هم في المقدمة حتمًا، لكنهم في الوقت نفسه في وضع أفضل

لأن موازينهم ومكاييلهم واضحة، يسهل التعامل معها، وبذلك يسهل عليهم تصحيح الأمر.

لكن في الحقيقة الآية توجِّه التحذير لنا جميعًا، لا في «مِهننا» وطرق كسبنا لعيشنا فقط، بل في «عيشنا» كله. كل ما نفعله في حياتنا فيه «معايير» و«موازين»، أغلبها «لا مرئية» ولكنها مؤثِّرة وحاسمة كما الكثير من الأشياء التي لا تُرى بالعين المجردة ولكنها تغيِّر العالم.

الآية تحذِّرنا من «الكيل بمكيالين»، مكيال نستخدمه مع أنفسنا ومع من يشبهنا ومع من نحبه، ومكيال آخر نستخدمه مع آخرين، مصنَّفين حسب القرب والبعد والمحبة والشبه، أو أي تصنيف آخر.

كلنا لدينا موازين، في العمل، في العلاقات، في المواقف، حتى في الأفكار.

وكل من لديه ميزان، يمكن أن يطفِّف.

الفارق أن بعض هذه «التطفيفات» تكون خفية جدًّا، صعبة التحديد، تحدث عبر عمليات انحياز «عقلي» يجد دومًا مبرراته ومسوِّغاته وشواهده وتواريخه.

كم من مظلوم تعاطفنا معه لأنه «يشبهنا»، ومظلوم آخر في موقف مشابه استخدمنا معه مكيال «الشماتة» و«العقوبة الربانية».

وكم من تأييد تصورنا أننا نستحق مكياله، رغم أننا في ظروف مشابهة لم نمنحه لمن كان في مثل وضعنا...

لا يقتصر الأمر على «القضايا الكبيرة» التي تحرِّكنا، فأغلب «تطفيفنا» هنا لا يغيِّر الكثير من الواقع.

لكن هناك تطفيفًا أشد خطورة نمارسه أحيانًا في علاقاتنا الشخصية. نأخذ أكثر مما نعطي، ونستنزف مَن أحبونا أو وثقوا بنا، نأخذ منهم عواطفهم وإخلاصهم وأجمل سنوات حياتهم، ولا نقدِّم لهم إلا الفتات.

كم زوجة سترفع يدها هنا وستقول «هذه أنا»، «هذا الحديث عني أنا»، كم أب فعل هذا بأولاده، وكم من أولاد فعلوا هذا بآبائهم وأمهاتهم، كم من أصدقاء تلاعبوا بأصدقاء صدقوهم، ولم يبادلوهم «المكيال» نفسه، كم من صاحب عمل تحايل على القانون والعقد المكتوب ليستغل أجيره، وكم من أجير فعل الشيء ذاته.

في كل علاقة في حياتنا، ينتصب «ميزان»، ومجموعة مكاييل ومعايير.

ونحن من نحدد كيف نضعها في الميزان.

***

فلنتذكر أن الآية تقول: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾ [سورة المطففين].

نضع خطًّا تحت «على الناس».

وليس على الذين آمنوا.

الحديث عن التعامل مع كل الناس، دون تمييز عقائدي أو قبلي أو مديني.

كل الناس.

بالمعايير والمكاييل نفسها.

***

نزول هذه السورة في هذا التوقيت يبدو مفهومًا أكثر بهذا السياق.

الانتقال إلى مرحلة بناء المجتمع يتطلب وضع أساس أخلاقي لطبيعة التعامل بين أفراد هذا المجتمع.

«ويل للمطففين» تعني تعامل مع الناس كما يحب أن يعاملوك. دع معيار تعاملك معهم يكون المعيار الذي تتمنى أن يستخدموه معك. إياك والتطفيف.

كل أخلاق المعاملات تجد أساسها في هذا الحجر الذي نزل في آخر سورة في مكة، كما لو كان الحجر الأساس الذي سيأخذه عليه الصلاة والسلام ويهاجر به إلى المدينة لكي يبني أسس التعامل في المجتمع الجديد عليه.

هذا الحجر سيكون أساسًا في العلاقة مع الجميع وليس مع من ينتمي معك إلى الإيمان فحسب، بل مع من يخالفك فيه، مع أهل المدينة التي حاصرتكَ وضيَّقتْ عليك، ستُرد لهم أماناتهم كما يُفترض بالصادق الأمين رغم كل شيء، ومع أعدائك الذين سينزل فيهم لاحقًا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [سورة المائدة].

كل ما يمكن تخيله من آفات سلوكية في التعامل مع الآخرين يمكن أن ينمو من مخالفة هذه القاعدة.

تعامل مع الناس بالمكيال نفسه الذي تعامل نفسك به، والذي تتمنى لو تعاملوا معك به.

كل «المعاملات» يمكن أن تؤسَّس هنا على هذا الحجر.

***

سورة المطففين فيها تفصيل عن «العقاب والثواب» أكثر من بقية سور جزء عمَّ عمومًا، ومن السور التي تحدثت عن «الأخلاق» (الماعون والهمزة)، ربما يكون

هذا لأن التطفيف يحمل في داخله بذرة كل السلوكيات التي ذمَّها القرآن.

فكان لا بد أن نرى في هذه السورة البذرة وما انتهت إليه... **في سجِّين**.

لكن ليس كل الطرق تقود إلى هناك..

فالطريق المعاكس يقود إلى حيث **الختام مسك**.

البروج: لن أبقى في طور الضحية

عزيزي أنا:

ستتعرض في أكثر من محطة في حياتك للظلم. لا أريد أن أفزِعك، ولا أن أقدِّم لك نظارة سوداء لكي ترى العالم من خلالها. هذا هو الواقع للأسف. ستتعرض للظلم، بدرجات مختلفة ومتفاوتة. هذا أمر مفروغ منه. جزء من طبيعة الأشياء. فلنقل إنه جزء من طبيعة وجودنا على هذه الأرض.

لا أقول لك أن تستسلم لهذا الواقع، بل أقول لا تستسلم. لكن أحيانًا، مهما قاومتَ، مهما عافرتَ، مهما صارعتَ، سيقع الظلم عليك لا محالة.

ومع الظلم ستكون هناك ظلمات. الظلمات نادرًا ما تأتي فرادى. أقلها الشماتة ممن تصورتَ أنه سيتعاطف معك.

وبينما تكون أغلب تلك الظلمات واضحة، فإن هناك ظلمًا آخر، خفيًّا، يتسلل على أطراف أصابعه، وهذه المرة تمكِّنه أنت من نفسك.

هذا الظلم الخفي سيدخل من التعاطف الذي ستحصل عليه ولا بد. سيكون هناك شامتون، لكن سيكون هناك من يتعاطف معك. التعاطف سيمنحك قوة تحتاج إليها بلا شك في لحظاتك الصعبة تلك. لكن الظلم الآخر سيحدث عندما «تستحلي» دور الضحية. عندما يصبح «دور الضحية» حلوًا في عينيك ما دام يمدك بالتعاطف. لا أقول لك إنك بهذا تمثِّل «دور الضحية»، أنت ضحية فعلًا وتعرضتَ للظلم بالفعل، أقول لك لا تبقَ في «طور الضحية»، اخرج منه، تجاوزه، ثمة أطوار لاحقة تجعلك أقوى. طور الضحية يمنحك التعاطف، لكنك تحتاج إلى أشياء أخرى لاحقًا، تحتاج أولًا إلى أن تنظر إلى نفسك بعين أخرى غير عين الضحية المظلومة.

الظلم واقع لا محالة، بتدرجات وتنوعات، فلا تجعل من عنوان «الضحية» محل إقامتك الدائم.

***

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾ [سورة البروج].

أحيانًا نطيل النظر إلى البروج المشيَّدة، نركِّز فيها إلى درجة تفصلنا عن الواقع، عن الأرض التي نقف عليها وأحوالها وتفصيلاتها.

البروج والأبراج العالية جذابة بلا شك. لكن بعض الجاذبيات قاتلة. السحاب يحيط بها بحيث نراها منفصلة عن كل الطريق الطويل الذي قاد لعلوها وارتفاعها. السحاب يجعلنا نراها كما لو كانت سهلة، يسيرة التحقيق، بناؤها لم يتطلَّب جهدًا كبيرًا وتخطيطًا دقيقًا وأرضًا صلبة وإرادة لا تلين.

خطر جاذبية الأبراج أنها تبدو من بعيد براقة تخطف الأبصار، تخطفها تحديدًا عن النظر إلى الأرض، إلى الواقع، وهذا قد يجعل الرؤوس منشغلة بأحلام يقظة ترحل بها إلى الأبراج، بينما الأرجل قد تنزلق إلى فخ منصوب، أو منزلق خطر.

الأبراج مثل الشعارات، يمكن أن تكون جذابة ولكن مخادعة، ويمكن أن توصِل إلى الآفاق، ويمكن أيضًا أن تكون الطريق إلى الهاوية.

والطريق إلى الهاوية يمكن أن يكون مزدحمًا بوعود الرخاء والازدهار والانتصار، ولكن يوم تحقيق الوعود هذا قد لا يأتي أبدًا، بل قد تأتي عقود طوال، تحمل عكس تلك الوعود.

تحمل الكوارث والمصائب.

والتاريخ حافل بالتجارب، والشهادات، والمشاهدات.

***

حادثة أصحاب الأخدود كانت معروفة عند عرب الجاهلية، فهي لم تكن بعيدة لا جغرافيًّا ولا تاريخيًّا عنهم، فقد حدثت في نجران (التي تبعد 600 كيلومتر عن مكة) بين عامي 517-527 ميلادية (أي قبل أقل من مائة سنة من البعثة) وكانت جزءًا من مجموعة مماثلة من الأحداث التي أدت إلى تدخل مملكة أكسيوم الحبشية في اليمن بزعم إنقاذ المسيحيين من الاضطهاد.

في الحادثة رمى الملك (ذو نواس) المؤمنين في أخاديد (حُفر عميقة) مشتعلة بالنار، وكان الإلقاء في

النار يتم بعد سؤال تتبيَّن فيه عقيدة المؤمنين. فمن كان على غير عقيدة الملك يُلقى في النار.

أي إن الأمر كان يحدث بعد امتحان.

سنسمع أصواتًا تقول وتؤكد أن هذا الأمر هو الطبيعي، وأنه يحدث كجزء طبيعي من قدر الأشياء والمراحل.

ستقول هذه الأصوات: الطريق إلى الأبراج العالية يبدأ من الأخدود.

بل لقد قيل لنا فعلًا: هذا هو «الطريق».

«الطريق»، بأل التعريف الحاسمة التي لا تترك طريقًا آخر على الخريطة.

كما لو أن هذا الطريق هو الخريطة الحتمية التي على المؤمنين سلوكها، للوصول إلى الجنة.

***

نزلت السورة في الفترة المكية، في السنوات الأولى من بدء البعثة، فتسلسُل نزولها هو (27)، أي في الفترة التي كان فيها المسلمون في مكة ينالون العذاب والاضطهاد.

الرسالة تبدو لنا واضحة: هذا هو «الطريق». أليس كذلك؟

بلى. لو كانت الرسالة تبدو كذلك، فهذا لأننا تعرَّضنا إلى ما يشبه عملية «الربط الشرطي» بين «الأخدود»

و«الإيمان»، صرنا نربط بين الأمرين كما لو كان هذا الارتباط حتميًّا.

كل ما يحدث يمكن أن يكون نتيجة حرب يواجهها الإيمان بلا شك، لكن جزءًا من هذا يمكن أن يعود أيضًا إلى فكرة «هذا هو الطريق»، إلى تحكمها في رؤيتنا بحيث أننا نرى الطريق إلى المهلكة فنقول: من هنا إذن.

المهلكة أضحت علامة دالة على صواب الطريق بالنسبة إلينا.

أصبح هذا من البدَهيات. المؤامرة على الإسلام تحيط بنا من كل الجهات. لو لم تحدث المؤامرة فينا فهذا يعني أننا جزء منها. هذا هو الطريق.

لكن لو تركنا متلازمة الربط الشرطي هذه ونظرنا في السيرة النبوية التي نزلت فيها السورة، لوجدنا الصورة مختلفة تمامًا.

نعم كان هناك اضطهاد وتعذيب متفاوت حسب الطبقة التي ينتمي إليها المؤمنون، لكن لم يكن هناك تعمُّد لتحمُّل التعذيب لأن «هذا هو الطريق». لم يكن هناك «لن أحتمي بالعشائرية والقبلية فهي مؤسسات خارجة عن الإسلام»، بل هناك استجارة بها وطلب حماية منها، بل وساطات «عشائرية» للتدخُّل في الأمر، كما كان

هناك محاولات لتخفيف العذاب عن العبيد من المؤمنين عبر شرائهم (لم يكن بلال وحده في الأمر، بل إن أبا بكر وحده أعتق سبعًا من العبيد الذين كانوا يعذَّبون).

لم يقف المسلمون أمام بلال وهو يعذَّب والصخرة على صدره ليقولوا له «هذا هو الطريق. تحمَّل»،

بل فاوضوا مالكه وزادوا في السعر حتى رضي أن يتنازل عنه.

بل إن القرآن رخَّص كلمة الكفر التي يقولها من يعذَّب كي يتركوه وشأنه، فبعض الحالات (مثل آل ياسر) كانوا من محالفي قريش، أي لا ينتمون إلى عشيرة داخلها، لكنهم يحالفون واحدًا من بطونها، فإذا بطش رجال هذا البطن بهم، لا يضحي التدخل يسيرًا، ولا الشراء ممكنًا أصلًا لأنهم ليسوا بعبيد.

إذن السورة نزلت في وقت كان المسلمون يتعلمون فيه كيف يتجنبون الأخدود، لا كيف يلقون بـأنفسهم في أول أخدود يصادفهم.

ولم تدلهم السورة على الأخدود باعتباره «الطريق».

بل شرحت لهم القصة لكي يتجنبوها.

الأخدود ليس النهاية الحتمية لطريق الإيمان.

***

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾ [سورة البروج].

الفتنة هي الامتحان، وهي الحرق أيضًا.

وفي هذا السياق كانت الاثنين معًا. امتحان بالسؤال، وحرق بالإلقاء في النار حسب نتيجة الامتحان.

لكن هذا لا يجعلنا نغض النظر عن أن عملية الفتنة فيها أكثر من طرفين. هناك الجلَّاد المجرم بلا شك، وهناك الضحية التي نالت فوز الآخرة بنص القرآن.

وهناك أيضًا الطرف الذين كان يقنع الضحية بأن لا دور آخر يليق بها. كان يقول لها هذا هو «الدور الأفضل»، هذا هو الطريق.

هذا الطرف ساهم في الفتنة، ربما دون قصد، ربما لأنه مقتنع أنه يفعل الصواب، لكنه جعل الضحية تتمسك بموقف الضحية، جعلها تلقي بنفسها في النار وهي تعتقد أن هذا هو الخيار الوحيد، «الطريق» الوحيد.

أيًّا كانت النية، هذا يجب أن يكون درسًا تتعلم منه كي لا تكرره، كي لا تنتهي النهاية نفسها في الأخدود، لكن هناك من فهم الدرس أنه نموذج للتطبيق والاحتذاء.

وتاهت أجيال في الأخاديد، من أخدود إلى آخر، وفي كل مرة، ربك يبدئ ويعيد، ويجعل أكثر من مخرج، لكن هناك من يعتقد «أن هذا هو الطريق».

***

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾ [سورة البروج].

كانوا أصحاب قوة عسكرية. سماهم عزَّ وجل «الجنود».

كان يمكن لموسى أن يفتعل مواجهة مع فرعون وجنده، تنتهي نهاية أخدودية، وينتهي الأمر.

بل كان يمكن أن يستسلم فقط، دون افتعال لمواجهة، لا أن يفر منه إلى البحر.

كان ثمة مخرج لموسى، وفي كثير من الأحيان يكون هناك مخارج.

أما إذا لم يكن، فهذا أمر آخر...

الطارق: ساعي البريد يطرق الباب عدة مرات

عزيزي أنا:

يميل أغلب الناس إلى أن يقرؤوا رسائل وإشارات عبر أحداث معينة في حياتهم، وبخاصة عندما تكون هذه الأحداث موجعة. ربما انكسار قلب، طعنة في الظهر، فقدان لقريب، أو خسارة لحبيب... ربما مشروع فشل بعد أن علقتَ عليه آمالًا كبيرة واستنزف منك جهدكَ ووقتكَ وأعصابكَ.

هذا ديدن البشر، أن يجدوا المعنى فيما يمرون به، وبخاصة عندما يمرون بما يعتبرونه فشلًا أو هزيمة.

لكن الرسائل والإشارات يمكن أن تكون موجودة أيضًا في كل مكان، ليس في الأزمات والكوارث فقط. يمكن أن تكون موجودة في التفاصيل اليومية الصغيرة، في الأحداث التي تتكرر كل يوم، في الروتين المعتاد، في كل ما أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياتنا دون أن يستوقفنا لنتأمل فيه، في كل ما نعتقد أنه مضمون حولنا ونتعامل معه كما لو أنه كوب الشاي أو فنجان القهوة في الصباح، أمر مفروغ منه.

هناك أيضًا رسائل وإشارات، بين السطور أحيانًا، وبالخط العريض في أحيان أخرى، ربما في تحية الصباح يلقيها عليك جارك، ثم يعلِّق تعليقًا عابرًا يعلَق في قلبك، أو آية حفظتَها وأنت صغير، ثم تسمعها فجأة من مذياع المحل فإذا بك تفهمها لأول مرة كما لو أنها موجَّهة لك أنت بالذات، أو جملة في أغنية سمعتها ألف مرة لكنها تقع اليوم في سمعك كما لو أنها تقول لك قصة حياتك.

كل تفاصيل الحياة اليومية حافلة بالرسائل والإشارات التي تطرق بابك كل يوم...

كل يوم يطرق على أبواب روحك طارق ويترك أثرًا كالرسالة المضيئة، مثل كلمة تحمل إجابة لدعاء مزمن،

أو جوابًا لسؤال حيَّر قلبك وعقلك لدهر، أو مجرد إشارة كنت تحتاج إليها لتعرف الطريق.

يحدث ذلك باستمرار، بعضنا يفضِّل ألَّا ينتبه للأمر أو ألَّا يقف عنده طويلًا فينسى ويندثر كما لو أنه لم يكن.

وبعضنا ينتبه للطارق.. يقوم من مكانه..

ويفتح الباب..

***

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [سورة الطارق].

مثل جسم يهوي مسرعًا في السماء، ليلة صيف صافية، يخطف بنوره بصرك عن كل النجوم، ربما يكون نيزكًا أو شهابًا أو مذنَّبًا أو نجمًا متسارعًا، لن يستطيع المراقب العادي أن يميِّز بينها، لكن خط الضوء الذي يثقب جدار السماء حفَّز الكثير داخل نفس الإنسان، من التساؤلات إلى الأمنيات مرورًا بالخوف، هذا الضوء الشارد الذي لا نراه أكثر من ثوانٍ كان كفيلًا بخطف بصرك، بإثارة تساؤلاتك، لكن الضوء الدائم، ذلك الذي نراه كل يوم، أحق بهذا. النجوم التي نراها كل ليلة هي أولى بأن تثير الأسئلة والتفكير.

تلك الأجسام المسرعة، شهب أو نيازك أو نجوم متسارعة، هي «الاستثناءات» التي تحدث ضمن «القاعدة» التي تجعل بقية النجوم في مداراتها، كل شيء يسير حسب القوانين الكونية التي وضعها الله في خلقه، وفي منطقة تتقارب القوانين أو تتباعد (بحسب قانون آخر)، فيفلت نجم من مداره مبتعدًا عن مركز المجرة أو يحترق جسم حجري بسبب احتكاكه بالغلاف الجوي... كل شيء له تفسيره، لكنها استثناءات «شاردة» من ضمن القواعد الثابتة التي نراها كل يوم.

القواعد الثابتة المستمرة أكثر قوة وتأثيرًا. كلٌّ منها تستحق أن تكون «الطارق» الذي يطرق باب الروح والفكر واليقظة. لولا أننا تعودنا عليها، فصار الاستثناء الشارد من مداراته أكثر قدرة على الإبهار...

مثل ماذا؟ ما هي القواعد الثابتة المستمرة؟

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [سورة الطارق].

هذه المعجزة التي تحدث كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة، هناك قرابة الـ 250 طفلًا جديدًا يولَد في العالم في كل دقيقة تمر، طريقة خلقه وولادته معجزة في

كل تفصيل، من التقاء النطفة بالبيضة إلى أول صرخة يطلقها في وجه هذا العالم، لكن لأنها متكررة لم نعد ننتبه إلى إعجازها.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾ [سورة الطارق].

هذا هو التحدي الأكبر الذي تُطرق من أجله الأبواب.

البعث.

كل التنبيهات والإشارات والطرقات تأتي لتقول لك: إنه على رجعك لقادر. الذي خلق كل هذا الخلق بهذه القدرة وهذا الإعجاز قادر.

هنا التحدي وهنا المواجهة، وهنا امتحان الإيمان الحقيقي.

الإيمان بوجود الله وبكونه الخالق المتفرد بالخلق أمر ليس بالعسير. هناك من الشواهد ما يسهِّل طريق الإيمان بذلك.

لكن أن نبعث بعد الموت لنحاسب؟

هنا التحدي الذي يغير كل شيء، لأن الإيمان به يتطلب تحضيرًا واستعدادًا يشمل الحياة بأسرها.

ومن السهل عليهم أن يرفضوا ليقولوا: لم نرَ شيئًا كهذا. لا دليل عليه غير ما تقولون.

نعم، لم تروا شيئًا كهذا لأنه لم يحدث بعد.

لكن الذي وضع كل هذه القوانين التي سيَّرت العالم، هل سيعجزه حقًّا أن يضع قانونًا آخر يبعث فيه كل الأموات ليحاسبهم؟

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾ [سورة الطارق].

الخالق الذي وضع القوانين التي أرجعت المطر مرة بعد مرة، وشقت الأرض لتخرِج نباتًا مرة بعد مرة، يستطيع -بلا شك- أن يضع قوانين أخرى تبعثنا من موتنا، لنحاسَب على كل ما عملناه.

كل قطرة مطر، كل بذرة شقت الأرض، هي «طارق» آخر، يدق على بابك، يذكِّرك بـ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾ [سورة الطارق].

الأعلى: الارتفاع عمقًا

عزيزي أنا:

قد تأخذك مطبات الحياة أحيانًا إلى الطريق الخطأ، ودون أن تنتبه تجد نفسك في منحدر يأخذك إلى القاع، وعندما تنبته من غفلتك إلى ما حدث قد تكون وصلت إلى أدنى حالاتك، في القعر من كل شيء، تحديدًا في الدرك الأسفل من نظرتك لنفسك.

مثقَلًا ربما بأشياء كثيرة: بالمعاصي والذنوب المخالِفة لكل ما تؤمن به، الفشل بكل معاييرك، الخذلان لنفسك ولكل من حولك.

نظرتك إلى نفسك في أدنى حالاتها.

أنت في القعر، وأنت تستحق القعر، على الأقل هذا ما تعتقده.

أنت عاجز حتى عن النظر إلى الأعلى.

خجِل من أن ترفع عينيك إلى هناك...

ثم تأتيك سورة، تمد إلى يدك حبل الإنقاذ الذي يساعدك، ينتشلك مما أنت فيه.

يعينك على أن تتحسَّس ما حولك، تتسلق..

ثم تضعك على رافعة.

وخلال عملية الارتفاع ستنظر أنت إلى الأسفل فإذا بهمومك تبدو أصغر مما كنت تعتقد، وإذا بكل ما ناء بحمله ظهرك يبدو الآن كما لو كان «شيئًا وسيمضي».

ثم تنظر إلى الاتجاه الآخر، إلى الأعلى، فإذا بسماء مفتوحة على الاحتمالات والإمكانات والقدرات...

هل تقول لك السورة أن تسبِّح باسمه «الأعلى»؟ أم تقول لك أن تسبِّح بأعلى أسمائه؟

هل من فرق؟ مهما كان. في الحالتين، التسبيحة رائعة، وأنت تتمسك بها لتخرج من حفرتك..

«سبِّح اسم ربك الأعلى» تقول لنا السورة في بدايتها.... ماذا نقول كي نحقِّق هذا؟

كل أمر بالتسبيح يكون جوابه «سبحانك».

ولأن الأمر هذه المرة كان مع «اسم ربك الأعلى».

إذن الجواب هو «سبحان ربي الأعلى».

***

لكن ما هو التسبيح؟

«سبحان الله»، نقولها كثيرًا، أحيانًا دون أن نفكر في معناها، أصبحت لفظة تُقال عند الاستغراب أو التعجب، وأحيانًا عند رؤية شيء رائع، وأحيانًا امتثالًا لأمر التسبيح.

لكن ما معنى التسبيح؟ ما معنى سبحان الله تحديدًا؟

تعني تنزيهه سبحانه وتعالى عن العيب، والنقص، والأوهام الفاسدة، والظنون الكاذبة سبحان الله

وأصلها اللغوي يدل على هذا المعنى، فهي مأخوذة من «السَّبْح»: وهو البُعد.

يقول العلامة ابن فارس: «العرب تقول: سبحان مِن كذا، أي ما أبعدَه». انتهى.

فتسبيح الله -عز وجل- إبعاد القلوب والأفكار عن أن تظن به نقصًا، أو تنسب إليه شرًّا، وتنزيهه عن كل عيب نسبه إليه المشركون والملحدون.

البعد إذن.

نستطيع أن «نحفر» في هذا المعنى أكثر، حفريات لا تتناقض مع «معنى التنزيه»، ولكنها يمكن أن تساعدنا أكثر في فهم هذا المعنى.

السبح: السَّبْحُ والسِّباحة: العَوْمُ. سَبَحَ بِالنَّهْرِ وَفِيهِ يَسْبَحُ سَبْحًا وسِباحةً. وأَسْبَح الرجلَ فِي الْمَاءِ: عَوَّمَه. وسَبْحُ الفَرَسِ: جَرْيُه. وَالنُّجُومُ تَسْبَحُ فِي الفَلَكِ سَبْحًا إِذا جَرَتْ فِي دَوَرانها. والسَّبْحُ: الفَراغُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحَا طَوِيلَا ٧﴾ [سورة المزمل].

قَالَ المُؤَرِّجُ: هُوَ الفَراغ والجَيئَة وَالذَّهَابُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [سورة يس]، أَي يَجْرُونَ، وَلَمْ يَقُلْ تَسْبَحُ لأَنه وَصَفَهَا بِفِعْلِ مَنْ يَعْقِلُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحَا ٣﴾ [سورة النازعات]، هِيَ النُّجُومُ تَسْبَحُ فِي الفَلَكِ أَي تَذْهَبُ فِيهَا بَسْطًا كَمَا يَسْبَحُ السابحُ فِي الْمَاءِ سَبْحًا، وَكَذَلِكَ السَّابِحُ مِنَ الخَيْلِ يَمُدُّ يَدَيْهِ فِي الجَرْيِ سَبْحًا.

وَقَالَ الأَزهري فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحَا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقَا ٤﴾ [سورة النازعات]، قِيلَ: السابحاتُ السُّفُنُ.

إذن، جذر الفعل يرتبط بمعنى «حركة جسدية/ مادية»، وهو تحديدًا يرتبط بحركة الأطراف بحيث تدفع الماء إلى الخلف، أو بعبارة أخرى «تزيح» الماء.

هل يلتقي هذا المعنى «الجذري» بمعنى التنزيه الذي نعرفه؟

نعم. المعنيان يلتقيان بإزاحة ما، الأول بإزاحة الماء والتقدم إلى الأمام، والثاني بإزاحة وإزالة كل نقيصة أو شبهة «تجسيم بشري» له عز وجل، نتيجة هذه الإزاحة تكون «تقدمًا» أيضًا، لكنه تقدُّم ببعد آخر، ليس بعدًا ماديًّا، بل ببعد الارتقاء والترقي، ببعد التقرب منه عز وجل... سبحانه.

***

تسبيح الله –تنزيهه– يجب ألَّا يعطلنا عن معرفته عز وجل.

في أحيان كثيرة يركز البعض على «التنزيه»، تنزيه الله –سبحانه وتعالى– عن كل نقيصة يمكن أن تخطر على ذهن بشري.

لكن هذا التركيز على التنزيه يجب أن يقترن أيضًا بمعرفته عز وجل، بمعرفة أسمائه وصفاته التي نرى آثارها في كل شيء حولنا.

ولهذا يقترن التسبيح باسمه «الأعلى».

***

يأتي الأمر الأول بالخروج من القعر، بالتسلق لمغادرة الدرك الأسفل...

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [سورة الأعلى].

رد الفعل الطبيعي لهذا الأمر هو «سبحان ربي الأعلى».

تبدو التسبيحة مألوفة جدًّا على آذاننا.

بالتأكيد مألوفة جدًّا، إذ إننا نقولها 3 مرات في كل سجود...

يُفترض بكل مسلم أن يقولها 108 مرة كحد أدنى (ست مرات في كل ركعة، 18 ركعة في اليوم).

التسبيح لـ«الأعلى» في «السجود»، أي إنك تسبِّح لربك الأعلى بينما أنت في أكثر الأماكن التصاقًا بالأرض، كما لو أنك تهمس بهذه التسبيحة في أذن الأرض، المنشأ الذي خرجنا منه وإليه سنعود، موضع الأمانة والاستخلاف...

تسبِّح للأعلى وأنت في سجودك، كما لو أنك لا تستطيع الاقتراب من هذا الاسم إلا وأنت في هذا الوضع. وضع السجود لله، أقرب إلى حقيقتك مهما علا شأنك، وما دمت أقرب إلى حقيقتك الأرضية، فهذا يجعلك مؤهَّلًا أكثر للتسبيح للأعلى.

***

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾ [سورة الأعلى].

لدينا هنا ثلاثة ثنائيات من أفعال الله -عز وجل- رتَّبها بحكمته سبحانه.

خلق فسوَّى

قدَّر فهدى

وأخرج المرعى فجعله غثاء أحوى

والفاء التي تربط بين كل فعلين في الأزواج الثلاثة هي الفاء العاطفة التي تفيد الترتيب دون انفصال.

سنفهم أن كل زوج من هذه الأفعال يمثِّل دائرة تضم وتحوي الدائرة الأصغر منها... كيف؟

الخلق والتسوية؟

نعتقد غالبًا أن الأمر يتعلق بنا فقط، ببني آدم باعتبار أنه عز وجل قد (سوَّانا) كما في أكثر من آية، لكن التسوية في لغة العرب لا تعني الاستقامة والاعتدال فقط، بل تعني أيضًا (المشابهة والمعادلة)، وتعني أيضًا الاكتمال، الضبط الدقيق.

نعم، بنو آدم نالهم هذا. لكن قوانين الخلق كلها تناغمت مع بعضها على معادلة متوازنة دقيقة بحيث إن أي تغير يطرأ على معامل واحد من القوانين والسُنن الكونية التي وضعها الله -عز وجل-، فإن كل شيء سينهار دفعة واحدة. ما كان يمكن للكون الذي نعرفه أن ينشأ لولا دِقة هذه القوانين وتناسقها.

هناك على سبيل المثال 6 أرقام دقيقة جدًّا يعتمد على دقتها البناء الكوني. نختار منها أول رقمين فقط:

الرقم الأول يُرمَز له بـ (N)، وهو الرقم الذي يعبر عن نسبة القوة الكهربائية التي تربط الذرات ببعضها إلى قوى التجاذب بين الذرات. ويُعتبر هذا الرقم هو السبب في أن الكون شاسع جدًّا، وهو يساوي:

1000000000000000000000000000000000000 أي عشرة مرفوعة إلى القوة 36 (10^36).

لو نقص هذا الرقم أصفارًا قليلة لما أمكن أن يُوجد إلا كون ضئيل قصير العمر، وما كان لكائن أن ينمو إلى حجم أكبر من الحشرة، وما كان ليوجد وقت كافٍ للتطور العضوي.

الرقم الثاني: يسمى (ε) Epsilon[1] ويعبر عن مقدار (متانة ارتباط الأنوية ببعضها). قيمته هي 0.007

تتحكم قيمته في القدرة الخارجة من الشمس، وكيف صنعت كل الذرات في الكون، والأهم من ذلك –والأكثر حساسية– هو أنه يتحكم في كيف تحوِّل النجوم الهيدروجين إلى باقي ذرات عناصر الجدول الدوري. انتشار العناصر في الطبيعة يعتمد على هذا الرقم بشكل مباشر، لذلك الكربون والأكسجين منتشران، بينما الذهب واليورانيوم شحيحان، ذلك بسبب ما يجري في النجوم. فلو كانت قيمته 0.006 أو 0.008، لما كنا وجِدْنا.

هذه الأرقام تبدو كما لو أنها تعرضت لتوليف دقيق fine tuning إلى أن ضُبطت على هذا النحو الذي يسمح بوجود الكون أو استمراره.

ما التوليف والضبط الدقيق غير هذه التسوية التي وضعها عز وجل في قوانين خلقه؟

نعم، خلق فسوَّى!

***

(1) الحرف الخامس من الأبجدية الإغريقية.

قدَّر فهدى؟

نقول أحيانًا: «قدَّر ولطف» عندما تكون «عاقبة الأمور سليمة بعد أن كان هناك خطر شديد». حادث تصادم كبير من يرى نتائجه لا يتوقع خروج أي أحد على قيد الحياة منه. لكن، قدَّر ولطف، لم يصَب أحد بسوء.

كذلك «قدَّر فهدى». قدَّر عز وجل كل شيء، وضع كل شيء بمقدار وعلى تقدير، كل شيء فيه «رسالة» ضمنية لمن يريد أن يراها أو يقرأها، رسالة هداية وإرشاد.

كما في قدَّر ولطف، أيضًا «قدَّر فهدى». ترك رسائله في كل قدر، وفي كل ركن، وفي كل زاوية... بحيث إن من يرِد حقًّا أن يبحث عنها، سيجدها، وسيجد معها الطريق.

ليس هذا فقط، بل إنه وضع تقديراته المتوازنة –التي قد تبدو للكثيرين مجرد صدفة– فجعلنا نلتقي أشخاصًا لا نستطيع تخيل حياتنا دونهم. بعض تقديراته بدت لنا أحيانًا امتحانات قاسية، ولكنه هدانا إلى الخروج من هذه الامتحانات أقوى وأكثر حكمة. لقد قدَّر فهدى، أقولها الآن كما لو أني أقول «قدَّر ولطف»، ففي تقديراته دومًا كانت هناك إشارات دالة إلى الطريق، إشارات «هداية».

وبالتأكيد فإن كل هذا التقدير، كل رسائل الهداية هذه، هي جزء من دائرة «الخلق والتسوية» الأولى. كل تقدير يحدث يكون ضمن الخلق وتسويته...

***

﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾ [سورة الأعلى].

المرعى يخرج دون جهد أو تدخل بشري، أرض الله وقوانينه، تعاقبات الفصول، تغيرات المناخ، التربة، الريح تنشر البذور، الأمطار، ارتفاع درجات الحرارة، ويخرج المرعى.

ثم بعد فترة، يصبح هشيمًا، غثاءً، لا أهمية له. تذروه الرياح كأنه لم يملأ الحقول خضرة بهيجة.

ما معنى الإشارة إلى خروج المرعى ومن ثم تحوله إلى غثاء في سياق «خلق فسوَّى» و«قدَّر فهدى»؟

هي داخلة بالتأكيد ضمن الخلق والتسوية، ما كان للمرعى أن ينمو لولا تلك القوانين وتوليفتها، لكنها أيضًا جزء مهم، من رسائل الهداية في «قدَّر فهدى»، لكنها هذه المرة رسالة مختلفة، ليست مكتوبة على حدث واحد بعينه، بل على مجموعة أحداث متسلسلة، على دورة القوانين في الطبيعة، على الصورة الكبيرة لمجموعة الأحداث الصغيرة المتتالية، والتي ضمنها تكون رسالة الهداية مبثوثة بأقوى وأكثر الأحرف بروزًا.

وهذه الرسالة تقول لذاك الذي كان في الدرك الأسفل من نفسه قبل أن تأتيه سورة الأعلى: انتظر الفصل القادم، الدورة القادمة، ستكون هناك فرص أخرى، ما دمت حيًّا، هناك فرصة للخروج من القعر... لكن هذه المرة عليك أن تتدخل... هذه المرة لا تدع دورة القوانين تفوتك...

***

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [سورة الأعلى].

إذن هي تسبيحة إلى الأعلى، لأعلى أسمائه عز وجل، أو لأنه الأعلى.

والعلو أنواع، وهو الأعلى بكل أنواع العلو بلا منافس، الأعلى في القوة، الأعلى في الرحمة، الأعلى في القدرة، في الحكمة. كل صفة من صفاته يمكن أن نأخذ منها أنه الأعلى فيها، كل ما نعرفه عن هذه الصفات في عالمنا لا يعدو أن يكون لمحة بسيطة من علوه فيها. إنه الأعلى دون حدٍّ، دون سقف.

وهذه التسبيحة إلى الأعلى، تحتاج منك إلى أن تقوِّي ذراعيك وكل حواسك، التسبيحة ترتقي بك بينما أنت تسبِّح له، هو الأعلى، وتمدك السورة بما يساعدك في ارتقائك، في تسبيحتك إلى الأعلى. تعطيك ثلاث صفات يمكنك أن تتشبث بهم في رحلتك إلى الأعلى.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾ [سورة الأعلى].

الخلق فالتسوية. التقدير والهداية. وإخراج المرعى بكل ما يحوي من إمكانات.

هذه الإشارات الثلاث هي التي تساعدنا في تسبيحتنا إلى «الأعلى»، ملكوت علوِّه يتجلى فينا، في خلقنا، في قصص هدايتنا إلى الطريق بعد التعثر، في هذا العالم المليء بالاختيارات.

لكن ليس الكل يستدل، البعض لا ينتبه إلى إشارات الدلالة الموجودة في كل شيء حولنا.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١﴾ [سورة الأعلى].

هناك شيء في داخلك عليك أن تتحكم فيه أولًا، لكي يحدث «التيسير» الذي يهديك وينتشلك من القعر ويساعدك على التسلق إلى الأعلى. ولا يعني هذا أنك لن تتعثر بعدها، ولن تخطئ، لكن «قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى» ستساعده في أن يستمر في تسبيحته

إلى الأعلى، في أن يكون اتجاه مسيرته صحيحًا، حتى لو تعثَّر أحيانًا، وتأخر في أحيان أخرى.

***

البشر عمومًا، عندما يقدِّمون منجزًا ما، يفخرون بأنه «جديد»، غير مسبوق، لا نظير له.

أما القرآن، ولأنه مِن الذي خلق فسوَّى وقدَّر فهدى وأخرج المرعى، فإنه يقول لك في خاتمة هذه السورة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [سورة الأعلى].

الأمر قديم، ورحلة الإنسان في تسبيحته نحو الأعلى قديمة، قبلنا بكثير، وستبقى مستمرة، نتعثر أحيانًا، ونتأخر أحيانًا، ويخيَّل إلى الكثيرين أن الطريق قد هُجر نهائيًّا، لكنه يبقى...

***

عزيزي أنا:

كلما سبَّحتَ باسمه الأعلى، وأنت في سجودك له، في أعلى مراحل خضوعك له، فإنه سيسحبك، ييسِّر لك أن تعلو عما أنت فيه.

كلما فعلتَ ذلك، هناك اتجاه واحد فقط.

إلى الأعلى.

الغاشية: وجه حقيقي في غابة الأقنعة

عزيزي أنا:

ستعلِّمك الحياة أن ترتدي أقنعة متعددة.

هذا يحدث معنا جميعًا.

مهما أنكرنا، مهما أصررنا أن الذي في قلوبنا على ألسنتنا، جميعنا كبشر محترفو أقنعة.

هذا جزء من طبيعتنا البشرية، من ضرورة تواصلنا مع الآخرين.

منذ أن تبدأ محاولات تواصلنا الأولى مع غيرنا من البشر، نلقَّن على وضع أقنعة تسهِّل هذا التواصل، ترسل رسائل إلى «الآخر» الذي نتواصل معه، نكبر وتكبر معنا أقنعتنا ويزداد عددها وتزداد خبرتنا في استخدامها.

مع الوقت، لا يصبح الأمر تظاهرًا، بل يصبح تغيير الأقنعة أمرًا عفويًّا تلقائيًّا. لدينا قناع للبيت، قناع للعمل، قناع لزملاء العمل، قناع للأصدقاء، قناع لنوع آخر من الأصدقاء، وهكذا.

بعض الأقنعة تكون مريحة، بعضها تكون أقل راحة، والبعض منا لا يعرف وجهه الحقيقي لكثر الأقنعة التي تعود على وضعها.

كلنا لدينا أقنعة، نتفاوت في عددها بالتأكيد، لكن نادرًا جدًّا هو الإنسان الذي لا يروَّض اجتماعيًّا ليكون لديه أكثر من وجه وقناع.

نحن «نتغطى» طيلة الوقت بأقنعة أصبحت جزءًا منا.

نتغشى بها.

كل هذا مقبول ويندُر أن نجد من يجادله.

لكن في لحظة ما، ستأتينا غاشية، تزيح كل تلك الأقنعة التي تغشِّينا بها.

سيكون لدينا من الآن فصاعدًا وجه واحد فقط، وجه واحد فقط نرتديه نحو الأبدية.

واحد فقط. الأبدية.

***

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ **[سورة الغاشية].**

وجوه على حقيقتها، بلا أقنعة، بلا تبديل ولا رتوش ولا تعديلات.

وجوه بانطباع واحد يسكنها إلى اللانهاية. يسكنها ويسكننا إلى اللانهاية. إما خاشعة خشوع الخوف والألم، وإما ناعمة، نعومة الإحساس بالمنجز والرضا.

سنرى التفاصيل في الحالتين. عين آنية. إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع....

عالية. لا تسمع فيها لاغية. جارية. مرفوعة...

تفاصيل دقيقة. ما الذي حدث فجأة؟ لمَ هذه التفاصيل.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ **[سورة الغاشية]**.

تسحبنا السورة إلى آيات «مضمونة»، نراها –أو نرى ما يشابهها – كل يوم. تعوَّدنا عليها لدرجة البلادة وانعدام الشعور. نركبها أو نسير عليها أو لا نلتفت إليها. آيات تحيط بنا من كل الجهات. أرض، سماء، جبال، وحتى مخلوقات نستثمرها.

لكن هذه الآيات تذكَّر بلا تفاصيل. بعمومها: كيف خُلقت. نُصبت. رُفعت. سُطحت.

جزء من أسباب عدم انتباهنا لها أننا لم نعد ننظر إلى «عمومها»، نتلهى بتفاصيلها الصغيرة عن «الصورة الكبيرة»، نهتم لتفاصيل مباشرة محيطة بنا لأنها قد تؤثِّر على حياتنا اليومية، لكننا نغفل الصورة الكبيرة،

مجموع التفاصيل الصغيرة التي تقودنا إلى فهم السبب في وجود كل هذه الآيات حولنا. إلى الكيفية التي خُلقت بها على هذا النحو، في أن كل تفصيل صغير نهتم به لهذا السبب أو ذاك هو جزء من ملحمة الصورة الكبيرة الأكثر أهمية من كل التفاصيل.

نهتم بالتفاصيل أكثر من العموم. لكن علينا أن نرفع رأسنا أكثر. نجعل مدى رؤيتنا أوسع. في الآخرة سيكون هناك متسع أبدي للتفاصيل. لكننا نحتاج اليوم إلى أن ننظر إلى الأشياء في المجمل.

***

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ **[سورة الغاشية].**

التذكُّر عملية داخلية، مهما حاولتَ من الخارج، من أقفل داخله لن يتذكر. تستطيع أن تعلِّق الأجراس وتطرق الأبواب وتطلق صافرات الإنذار. كلها محاولات تذكير من الخارج. من يرِد أن يدس رأسه في الرمال ويضع الطين في أذنيه لن يسمع شيئًا ولن يتذكر.

لست عليهم بمصيطر، بالتأكيد.

ما دام التذكر عملية داخلية، والتذكير من الخارج، فأنت لن تصيطر أبدًا عليهم.

ما لم يكن التغيُّر من الداخل، فكل الأقنعة التي احترف البشر وضعها والتغطِّي بها لن تغيِّر شيئًا في الحقيقة.

تستطيع أن تغيِّر الأقنعة والوجوه...

لكن الحقيقة لا سيطرة من الخارج عليها...

هناك غاشية ستكشفها، وحساب لاحق يواجهها.

***

لست عليهم بمصيطر.

«عليهم».

أما «عليك»، فهذا خيار عليك أن تجرِّبه وتحاوله وتتمسك به.

أن تسيطر عليك.

إن كنت فاقد السيطرة عليهم، فالأمر ليس ذاته مع نفسك.

تذكَّر ذلك يا عزيزي أنا.

الليل والفجر والضحى والعصر:
الحياة... عشية أو ضحاها

عزيزي أنا:

في بواكير عمرك، ستبدو لك الثلاثون بعيدة كاحتمال بعيد الحدوث، والأربعون ستكون في قارة أخرى معزولة عن كل العالم، أما الخمسون فستكون في كوكب خارج المجرة.

قبل أن تجد الوقت لتراجع هذه الأفكار، ستجد نفسك قد وصلت إلى واحدة من هذه المحطات، وقبل أن تعلن

استغرابك من ذلك ستكون على وشك الوصول إلى المحطة التالية.

كل شيء كان أقرب من توقعاتك وقت البواكير.

كل ما مر عليك سيكون ذات يوم مجرد ذكريات لو أردت استحضارها لانتهت في دقائق. كل حياتك يمكن أن تُختصر في بضع جمل، أو أقل.

ولهذا بالذات، عليك أن تختار أيامك.

***

أربع سور تحمل أسماء أجزاء من اليوم، نزلت بترتيب نزول موافق لترتيب أجزاء اليوم هذه...

ابتداء من الليل، ثم الفجر فالضحى...

وأخيرًا سورة العصر.

وهذا الترتيب لم يُقطَع إلا بوجود سورة الشرح، بعد الضحى وقبل العصر.

ما الدلالة المحتمَلة من هذا الترتيب؟ هل يرتبط هذا الترتيب بمحتوى السور ودلالاتها، ومحتوى كل سورة؟

سورة الليل: في البدء كانت الظلمة

البداية من الليل.

كما لو أن محطة الانطلاق الحقيقية تكون هناك، في التخطيط والتدبير الذي يسبق البدء بالتنفيذ، وظهور الأشياء وعلوها...

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [سورة الليل].

إلى أن يصل إلى النتيجة النهائية، جواب القسم: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [سورة الليل].

المخفي في الليل، قد يكون واضحًا جليًّا في النهار، والذكر والأنثى يبدوان على طرفَي المعادلة، متناقضين... لكن هذا الليل يضمهما فيتكاملان معًا وينتِجان الحياة الجديدة كتكامل الليل والنهار... وهذا كله لا ينتِج قوالب جامدة أو متوقَّعة، بل ينتِج أنماطًا مختلفة متعددة ومتنوعة من «السعي» تفوق قدرتنا على التنميط والوضع في القوالب.

هذا الليل فرصة للنظر من زاوية مختلفة.

النهار يوضِّح كل شيء، لكن الليل فرصة لانسحاب تكتيكي تتأمل فيه الأمور بعد أن تنسحب عنها الأضواء

والظلال، على العكس مما هو سائد، قد ترى الأمور على نحو أوضح في الظلمة عندما تراها مجرَّدة من زوائد النور ولعبة الظل والضوء.

ما يكون واضحًا في الظلام، سيكون وضوحه في النهار حقيقيًّا فاعلًا بلا رتوش ولا مساعدات...

الليل يخفي الأشياء ويغطيها، وكذلك السورة تتحدث عن دواخل الإنسان وما يخفيه في نفسه. لا الأشياء المعلَنة التي يصرِّح بها ويفعلها جهارًا نهارًا.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ **[سورة الليل].**

كذلك (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى) والآخر (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى) لا يفعلان هذا الذي يفعلانه بالضرورة علنًا.

هذه أفعال يمكن أن يخفيها الليل ويسترها.

هذا من ضمن «السعي» الذي قالت السورة عنه إنه «شتَّى».

***

يضم «الليل» سر التيسير.

أو بالأحرى: سرَّي التيسير. التيسير بالاتجاهين: التيسير لليسرى، والتيسير للعسرى.

هناك في الليل الذي يخفي الأسرار وما تسرُّه الأنفس «السر» الذي يضعه الله بأقداره وخططه.

التيسير لليسر والتيسير للعسر.

لا نفهم كل التفاصيل إلا ربما بعد مضي وقت طويل وبعد أن تحل الصورة الكبيرة، لكن الليل سيزول لاحقًا، وسيأتي الفجر بعده، وستكشف كل الخفايا، وتتبين نتائج «السعي البشري»، وستكون، كما أقسمَت السورة، شتَّى...

***

الليل-رغم كل شيء- يساعدنا على جعل رؤيتنا ليست أكثر وضوحًا فقط...

بل أعلى أهدافًا...

يمنحنا مساحة أكبر لكي نريد أكثر، وأعلى، وأبعد...

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾ [سورة الليل].

ولأن للتيسير أسرارًا لا نفهمها كلها، فالنتيجة ستكون:

﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ [سورة الليل].

سورة الفجر: قادم لا محالة

بعد الليل، ماذا يأتي؟ يأتي الفجر، وكذلك سورة الفجر تنزل بعد سورة الليل.

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [سورة الفجر].

الفجر سيأتي مهما طال الليل، بل مهما كانت الليالي العشر تبدو لو أنها دهر لا ينتهي، هي في النهاية معدودة، مهما طالت... وسنرى الليل وهو يسري ويتسرب ويبتعد...

***

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤﴾ [سورة الفجر].

يأتي جواب القسم متأخرًا قليلًا، وبعد أن تستعرض السورة الأقوام والأمم السابقة، عاد، وثمود، وفرعون... كما لو أن هذا التأخر مقصود ليقول لنا إن عذاب الله لهذه الأمم الظالمة (أو لمن ظلَم فيها) قد يتأخر قليلًا بمقاييسنا البشرية، لكنه يأتي حتمًا، فهو واقف هناك ينتظرهم، بالمرصاد.

بالمرصاد: هذا هو عنوان مكان الانتظار. كلٌّ ينتظر قدَره وموعده في «المرصاد».

***

لكن المرصاد ليس موعد الأمم والمدنيات العظيمة أيضًا، ثمة امتحان ينتظر الجميع مع هذا الفجر...

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الفجر].

في الحالتين هو ابتلاء: الرزق ابتلاء وتقدير الرزق ابتلاء... هو امتحان واحد بأسئلة مختلفة، وإذا كنت ستفسِّر كل شيء بأنه «منحة» أو «عقوبة»، فقد فاتك أهم ما في هذا الامتحان... أن تعي أنه امتحان، وأن تفسِّر أوضاعك بناءً على هذا لتتمكن من الخروج منها، لا أن تستسلم لما يحدث منها وتقول هذا كان عقوبة وهذا كان مكافأة.

كله ابتلاء.

وعليك الأداء.

***

بينما كانت سورة الليل تتحدث عن دواخل النفس، فإن سورة الفجر تتحدث عن أقوام وأمم كانت منجَزاتها مالئة للدنيا (وكذلك ظلم الظالمين فيها ولها)...

الحديث هنا ليس عن نفسٍ بشرية تخفي دواخلها، بل عن أمم ومدنيات، وما يناسب الليل الذي يستر البشر، سيكون مختلفًا جدًّا بعد «الفجر».

والظلم هو أساس دمار تلك المدنيات، ظلم الإنسان في علاقته مع الإنسان. كانت منجَزات هذه الأمم عالية في البنيان والعمران بلا شك، لكن الظلم نخر في قواعدها، الإنسان كان مسحوقًا داخلها.

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ **[سورة الليل].**

الحوار في سورة «الليل» كان فرديًّا حميمًا، عن «فرد» بخل واستغنى، وآخر يأتي ماله يتزكى....

مع الفجر، اختلفت طبيعة الحوار ونوعية الأمثلة، الأمر هنا علني وجهري وموجَّه للجماعة، حديث صريح عن فقدان «العدالة الاجتماعية» وتظالم بين أفراد المجتمع

الذي تمكَّن من تحقيق «أوتاد» ونحت في الصخر، لكن لم يقدِّم منظومة تحقِّق العدل بين الأفراد.

***

هناك قشعريرة في خاتمة سورة الفجر، لا يمكن أن نفوِّتها.

في أوائل الفترة المكية انقطع الوحي لفترة عن الرسول -عليه الصلاة والسلام- لا نعرف كم كانت هذه الفترة ولا متى كانت بالضبط، لكن نعرف أنها كانت عصيبة وصعبة.

ثمة إشارة في سورة الضحى، قد تكون إشارة إلى هذا الانقطاع:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [سورة الضحى].

إذا صح هذا الربط، فهذا يعني أن سورة الضحى هي أول ما نزل بعد هذا الانقطاع، وهذا يعني أيضًا أن سورة الفجر كانت آخر ما نزل، وبعدها انقطع الوحي لفترة.

ماذا تقول آخر الآيات الأخيرة في سورة الفجر؟

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الفجر].

هناك نفس مطمئنة توفت في هذه المرحلة...

من؟

لا نعرف على وجه التأكيد...

لكن ...

في الأحاديث عن بدء الوحي ما يقول إن انقطاع الوحي حدث بعد وفاة ورقة بن نوفل، ابن عم السيدة خديجة.[1]

هل تكون هذه النفس المطمئنة هي نفس ورقة؟

هل تكون هذه الآية التي نكتبها اليوم على شواهد القبور قد نزلت أولًا على ورقة؟ ذلك الشيخ الذي أوقد قنديله ليلة نزول الوحي ليستقبل السيدة خديجة والنبي الكريم بينما يخبره بما حدث في الغار، وليهمس في أذنه: «ليتني أكون جذعًا عندما يخرِجك قومك.»

فيسأله الرسول: «أومُخرجي هم؟»، فيقول له الشيخ المطمئن: «نعم».

***

(1) صحيح البخاري 3

صعب جدًّا أن تمنع القشعريرة من السريان في جسدك وأنت تربط هذه الآيات الأخيرة من سورة الفجر بهذا الموقف وبهذه النفس المطمئنة التي رجعت إلى ربها راضية مرضية.

إنها النفس التي بثت الطمأنينة في روحه عليه الصلاة والسلام في تلك اللحظات الحرِجة، التي فتحت كوة إلى الأمل والغد وقالت له ما يجب أن يقال في مطلع الرحلة...

لو أن ورقة كتب كلماته على ورقة لما خُلِّدت هكذا...

الأوراق قد تحترق، لكن كلمات ككلمات ورقة تطير، تخترق الزمن، تصل إلينا وتبث لنا قشعريرة الموقف، وطمأنينة الجذع.

سورة الضحى: ما أحلى الرجوع إليه

وبعد الفجر، تأتي سورة الضحى..

والضحى هو وقت النشاط والعمل والإنتاج، من بعد الفجر إلى قبيل الظهر. وهل من وقت أوضح وأنسب لنا لندخل في ذاته عليه الصلاة والسلام بينما السورة تربت على كتفيه وتواسيه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [سورة الضحى].

تأخذك السورة إلى فرحته عليه الصلاة والسلام عند عودة الوحي بعد انقطاعه لفترة، فلا تعرف إن كان هذا النور هو النور المتدفق من حضوره، أم هو نور الضحى، أم أن نور الضحى هو الذي جعلنا نرى مسيرته الشريفة بهذا الوضوح... من اليتم إلى المأوى، ومن الفقر إلى الغنى، وصولًا إلى الهدى ونزول الوحي.

لسنا متأكدين إن كان هذا الذي ينهمر هو المطر أم النور، أم هو مطر منير، لكننا نشعر بهذا الانهمار ومزيج المطر والنور المتدفق من سيرته الكريمة، ومن هذا الموقف كله، ومن هذه السيرة التي تربِّت على الرسول وتواسيه وتأخذنا أيضًا إلى مسيرة حياتنا الشخصية.

كلنا نتمنى لو أننا حصلنا على المزيد من حضور آبائنا في حياتنا، كلنا لدينا جزء يتيم بحجم متفاوت في أعماقنا، يحتاج هذا الجزء إلى «خدش» بسيط جدًّا ليظهر على السطح ويبكي: نعم، كنت أريد أن يكون أبي حاضرًا في حياتي على نحو أكبر، ونعم، الحمد لله الذي آواني وجعل لي ما عوضني عن هذا الغياب.

سنذكر حيرتنا وتساؤلاتنا، ونذكر معها كيف قدَّم لنا عز وجل الأجوبة في آخر الأماكن توقعًا، في المنعطفات والمواقف وفي الناس ورحلة حياتهم والجمل العابرة التي

يقولونها ربما دون قصد، لكننا نجد الجواب، ويغمرنا النور بعد حيرة وظلام.

تأخذنا السورة إلى الصورة الكبيرة لرحلة حياتنا، لما تصوَّرناه النهاية يوم حدث، وما اعتقدناه الهزيمة القاضية، ثم كيف قرأنا لاحقًا ما حدث بعين مختلفة، ورأينا أنه كان أفضل ما حدث لنا على الإطلاق.

ونقول كما تقول السورة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [سورة الضحى].

سورة العصر: قبل فوات الأوان

وبعد سورة الضحى[1]، تأتي سورة العصر.

النهار يقترب أكثر فأكثر من أن ينتهي، هذا وقت حساب جهد اليوم ونتائجه، فماذا يكون جواب القسم في السورة؟

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [سورة العصر].

جواب صادم جدًّا، لولا أن الآية التالية تفتح أبواب الأمل مشرعة باستثناء واسع جدًّا... ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر].

(1) هذا بالنسبة إلى ترتيب سور أجزاء اليوم، لكن سورة الشرح نزلت بين الضحى والعصر، وهناك من يعتبرها سورة واحدة مع الضحى.

لكن لماذا تأتي جردة العمل هذه في العصر وليس في وقت أقرب إلى الليل عندما ينتهي النهار فعلًا؟

لأنه العصر. ثمة وقت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، للخروج من جواب القسم (إن الإنسان لفي خسر) إلى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات...).

الإيمان والعمل الصالح هو «الجواب النهائي» الذي يجمع سور اليوم الواحد.

كان جواب «الليل»: إن سعيكم لشتى... لقد ابتدأت الرحلة.

وكان جواب «الفجر»: إن ربك لبالمرصاد. حذار من الظلم، الامتحان مستمر في النجاح والفشل.

جواب الضحى كان: ما ودَّعك ربك وما قلى... لا تعتقد أنه قد تخلى عنك. اقرأ الصورة كاملة وبدقة.

وجواب العصر كان: إن الإنسان لفي خُسر... للأسف.

تقول في نفسك: هذه هي النهاية؟

ثم تستدرك عليك السورة: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

تترك باب الاستدراك مفتوحًا على مصراعيه، يدخله كل من شاء...

بإيمان، وعمل صالح.

البلد: بلد المحبوب-علاقات معقَّدة

عزيزي أنا:

علاقتك مع بلدك ستكون علاقة مهمة في حياتك، مهما كانت الظروف، ومهما اختلفت في وصفها، فستبقى علاقتك ببلدك مهمة. والأهمية يمكن أن تنبع من السلبي كما من الإيجابي، وبعض ما يكون سلبيًّا في البداية يفتح فيك أبوابًا إيجابية لاحقًا، لذا فتوصيف السلبية والإيجابية عابر ومؤقت.

... نحب بلداننا، هذا طبيعي، جزء من «الفطرة» التي يشترك فيها كل البشر (أو أغلب البشر، على الأقل)، أن

يحبوا البلد الذي وُلدوا فيه، كبروا فيه، امتزجت ذكرياتهم مع ترابه وحكاياتهم مع أخباره، وارتبطت أحلامهم وكوابيسهم بما يحدث فيه.

كل هذا طبيعي.

لكن الحب، كأي علاقة بين اثنين، يمكن أن يكون علاقة «سلبية»، مضرة بالصحة النفسية والجسدية.

يمكن لحبك لبلدك -كأي علاقة حب- أن يتحول إلى علاقة مرَضية مستنزِفة لعواطفك وجهدك وحياتك.

الفارق أن علاقة الحب بين الأشخاص، تكون بين طرفين بينهما تفاعل.

أما مع بلدك، فأنت تتفاعل مع ما يحدث به وفيه، وهو ليس «طرفًا» إلا في استقبالك وتفاعلك مع ما يحدث.

في كثير من الأحيان: سيبدو كما لو كان لا مباليًا، لا يكترث بك وبمشاعرك وبما يحدث فيك فيه.

ككل العلاقات من هذا النوع: هذا يجب أن يتوقف.

ليس الأمر هينًا أو سهلًا، فحبه أصبح جزءًا منك، وأنت أصبحت جزءًا منه، وهو احتوى كل حياتك...

لكن...

***

وقد يعقِّد الأمر أكثر وأكثر، أن تكبر في بلد، وينتمي والداك إلى بلد آخر، سواء كنت قد نشأت فيه بالفعل قليلًا أو حملت النشأة عن بعد عبر والديك.

هنا ستتمزق بين بلدين، بلد الإرث الذي لا تستطيع أن تتنصل عنه بسهولة، وبلد آخر تجذرت فيه ذكرياتك وتكونت فيه شخصيتك، وربما منحك ما لم يقدر البلد الأول على منحك إياه.

***

ويعقِّد ذلك أكثر وأكثر وأكثر أن تكون أنت من حملت أولادك من بلدك إلى بلد آخر، أملًا في حياة أكثر أمانًا أو كرامة. كان خيارك صائبًا بلا شك لحظتها، ولعلك فكرت أنك قد تعود بهم يومًا ما، لكنك ستكتشف مع الوقت أن من حملتَهم أطفالًا دون قرار لم يعودوا كذلك، وأن قراراتهم وخياراتهم قد لا تتوافق مع قرارك، وأن كلمات مثل «سنرجع يومًا إلى حيِّنا» لن تذكِّرهم إلا ببيت مهجرهم الأول، وليس ببلدك أنت.

***

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾ [سورة البلد].

الاتفاق أن هذا البلد هو مكة، البلد الحرام.

وهو مكان مقدَّس بلا شك. قبلتنا جميعًا.

لكنه عز وجل يقول: لا أقسم بهذا البلد.

تأتي الآية الأولى بشيء كالصفعة: لا أقسم بهذا البلد.

لماذا؟ هذا البلد الأمين! لماذا تنفي الآيات القسَم[1]؟ ما الذي حدث؟

---

(1) من المعلوم أن جمهور المفسرين يفسرون النفي هنا بكونه زيادة في التوكيد، أي إن «لا أقسم بهذا البلد» تعني «أقسم بهذا البلد»، لكن هذا لا يمنع أن الكثير منهم قد نقلوا وجود قول آخر يعتبر المعنى نافيًا للقسَم بسبب أن الكافرين قد آذوا الرسول -عليه الصلاة والسلام- في هذا البلد، أو لأنه أحق بالقسم به من البلد.

قال ابن عطية (ت 584 هـ) في تفسيره: **وقال بعض المتأوِّلين لا نفي للقسم بالبلد، أخبر الله تعالى أنه لا يقسم به.**

وقال النيسابوري (ت 406هـ) في إيجاز البيان: **لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ: أي: وأنت مستحَل الحرمة، فيكون واو وَأَنْتَ واو الحال.**

ونقل القرطبي (ت 671 هـ) في تفسيره **وَقِيلَ: هِيَ نَفْيٌ صَحِيحٌ، وَالْمَعْنَى: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ إِذَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ، بَعْدَ خُرُوجِكَ مِنْهُ. حَكَاهُ مَكِّيٌّ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ.**

ونقل ابن جزي (ت 741 هـ) في تفسيره: **والآخر أن معنى حلٌّ تستحل حرمتك ويؤذيك الكفار مع أن مكة لا يحل فيها قتل صيد ولا بشر ولا قطع شجر، وعلى هذا قيل: لا أقسم يعني لا أقسم بهذا البلد وأنت تلحقك فيه إذاية.**

وجاء في الدر المصون لمؤلفه السمين الحلبي (ت 756 هـ): **الثاني من الوجهين الأوَّلَيْن. أنَّ الجملةَ حاليةٌ، أي: لا أُقْسِمُ بهذا البلدِ وأنت حالٌّ بها لِعِظَمِ قَدْرِك، أي: لا يُقْسِمُ بشيءٍ وأنت أحَقُّ بالإقسام بك منه. وقيل: المعنى لا أقْسِم به وأنت مُسْتَحَلٌّ فيه، أي: مُسْتَحَلٌّ أَذاك. وتقدَّم الكلام في مثلِ «لا» هذه المتقدِّمةِ فِعْل القسمِ.**

ونقل الشوكاني (ت 1255 هـ) في فتح القدير: **وَقِيلَ: الْمَعْنَى: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حَالٌّ بِهِ وَمُقِيمٌ فِيهِ وَهُوَ مَحَلُّكَ، فَعَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ لَا نَافِيَةٌ غَيْرُ زَائِدَةٍ يَكُونُ الْمَعْنَى: لَا أُقْسِمُ بِهِ وَأَنْتَ حَالٌّ بِهِ، فَأَنْتَ أَحَقُّ بِالْإِقْسَامِ بِكَ.**

ونقله محمد صديق خان (ت 1307هـ) في فتح البيان في مقاصد القرآن: **وقيل هو نفي للقسم. والمعنى لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه.**

ونقل أبو حيان (ت 745هـ) في البحر المحيط في التفسير: **وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهَذَا يَتَرَكَّبُ عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ لَا نَافِيَةٌ، أَيْ إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ لَا يُقْسِمُ اللَّهُ بِهِ، وَقَدْ جَاءَ أَهْلُهُ بِأَعْمَالٍ تُوجِبُ الْإِحْلَالَ، إِحْلَالَ حُرْمَتِهِ.**

تكمِل لنا الآيات ما نفهم منه الأمر..

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢﴾ [سورة البلد].

النفي للقسم كان بسبب ما تراه يا محمد، بسبب ما يفعلونه بك، بسبب هذا الأذى الذي ينالك.

لولا هذا الأذى، لما نُفي القسم.

لكل شيء حدود، وأنت يا محمد بمكانتك أهم من «البلد» مهما عظمَت. حدود حرمة البلد تقف عندما تُهدر حرمتك.

***

لا أستطيع إلا أن أفكر في كل البلدان التي ارتبط بها أبناؤها بعلاقة حب مستنزِفة مريضة، علاقة معقَّدة.

«بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة» بالتأكيد، لكن ثمة حدودًا لهذا. يجب أن يكون هناك حدود لهذا عندما تنتهك حدودك أنت. إذا كان ذلك قد أثَّر على «قسم» بالبلد الأمين، البلد الحرام، البلد الأكثر قداسة، فكيف لا يؤثر على البلدان والبلدات الأخرى، نعم حبها جزء منا، لكن يجب ألَّا يتحول ذلك إلى علاقة تستنزفنا، ثمة حدود لعلاقات من هذا النوع، لا أحد يحزم حقائبه من أول مواجهة أو أول إهانة أو أول ألم، لكن... يجب ألَّا يكون ذلك بلا نهاية.

في النهاية، إنسانيتك أكرم على الله من الأماكن والجغرافيا.

ويجب أن تكون كذلك عندك.

***

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ [سورة البلد].

هذه هي قصة السلالة الإنسانية، ما كان يمكن للبشر أن ينتشروا في كل الأرجاء ويجعلوها «معمورة» لولا أنهم تركوا –أو ترك جدٌّ لهم– أرضهم ذات نقطة تجاوزت حدود الاحتمال، من أجل لقمة أو مسكن أو كرامة أو حق في الحرية أو العبادة.

كلهم أحبوا بلدانهم، كلهم امتلكوا الشعور ذاته الذي نملكه، لكنهم قرروا أن يضعوا هذا الشعور مع بقية متاعهم، وحملوه على ظهورهم وهم يبحثون عن مكان آخر يتسع لحياة أفضل.

لا جديد في قصصنا ومتاعبنا ومشاعرنا تجاه بلداننا.

كلها قصص كانت جزءًا من تاريخ السلالة الإنسانية، مرارًا وتكرارًا.

لا جديد.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥﴾ [سورة البلد].

المعاناة والمشقة الإنسانية هما جزء أساسي أيضًا من حكاية السلالة البشرية، ما كان للإنسان أن يحقِّق ما حققه دون مكابدة المشقات وتجاوزها، ما كان له أن يكون قويًّا ومنجِزًا لولا تلك الصعوبات التي تعلَّم منها وعبرها، لكن خروجه الظافر من هذه المعاناة بأكاليل المنجزات يجب ألَّا يجعله ينسى أنه لن يصبح «الذي لا يُقهَر»، مهما حاول ذلك.

سيبقى خالقه قادرًا عليه، مهما حاول أن يتجاهل هذه الحقيقة التي لا تحتاج إلى برهان.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [سورة البلد].

كل الأدوات التي حقق بها الإنسان منجزاته كانت منحة من الخالق، حواسه، قدراته العقلية، قدرته على اتخاذ القرارات، كلها منحة من الخالق، القادر على أن يقهرك في ألف طريقة وشكل.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ **[سورة البلد].**

لكلٍّ منا عقبته التي عليه اقتحامها.

ربما العقبة هي أن تكون أسيرًا لعلاقة حب مستنزِفة، مع حبيب، أو مع وطن...

أو حتى مع نفسك.

ربما نفسك هي عقبتك الحقيقية، وعقدتك الأهم، ربما أنت حبيس داخل ذاتك وأناك على نحو يجعلك أسيرًا لا سبيل لفك رقبته إلا باقتحام العقبة...

ربما أنت حبيس نظرتك إلى نفسك، أو نظرة الآخرين إليك، أو حبيس لرؤية ضيقة للعالم تقف عقبة دون نموك ونضجك.

لكلٍّ منا عقبته، واقتحامنا لهذه العقبة قد يكون (أحيانًا على الأقل) المواجهة الأهم في حياتنا.

لكلٍّ منا عقبة واحدة فقط؟ بل عقبات!

قد يكون هذا الاقتحام واحدًا من أكثر المكابدات إنجازًا وإثمارًا... في حكاية سلالة الوالد وما ولد.

وهل حياتنا وحكايتنا إلا سلسلة متعاقبة متتالية من محاولات اقتحام العقبة؟ مرة مع عقدنا وكدماتنا الداخلية التي لا يراها أحد، ومرة مع الآخرين من حولنا، ومرة مع محيطنا والأفكار المتصادمة فيه.

وربما مع البلد الذي أحببناه أكثر مما أحبنا، أو على الأقل لم يكترث بنا.

***

«فكُّ رقبة»؟ هل تقول لقد انتهى زمن العبيد؟

بل انتهى زمن الرق التقليدي، الأغلال أضحت لا مرئية ولهذا فهي أصعب على الاستئصال. أستطيع أن أبدأ بسرد قائمة من الأغلال المعاصِرة. للأسف لو بدأتُ فلن أنتهي بسهولة.

فكُّ رقبة؟

تلمس رقبتك.

بها فابدأ.

الشمس: ما وراء الشمس

عزيزي أنا:

إياك أن تصدِّق من يحاول أن يقنعك بسهولة التعامل مع النفس البشرية.

إياك أن تقتنع بأي تفسير مسطح، ذي بعد واحد لدوافع النفس البشرية وسلوكياتها.

لا أتحدث هنا عن «النفس البشرية» الأخرى، أي عند الآخرين.

بل حتى عن نفسك أنت.

إياك أن تتعامل معها كما لو كانت نموذجًا جاهزًا مكرَّرًا، أو قالبًا يجعلك تشبه الملايين.

نفسك مثل بصمتك، لا تتطابق تمامًا مع أي نفس أخرى.

وإن فهمتَها على نحو يقلِّل من تفردها، أو يجعلها مجرد قالب مسطَّح، فأنت في خطر كبير. أنت في معركة لا تعرف شيئًا عن ساحتها.

ولا عن سلاحك فيها.

ولا عن عدوك فيها أيضًا.

نفسك هي كل ذلك في آنٍ واحد، ساحة المعركة، والسلاح، والعدو.

***

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [سورة الشمس].

النفس البشرية تشبه مرآة ينعكس عليها هذا العالم الذي نعيش فيه.

أحيانًا تكون واضحة، صريحة، مباشرة، مثل الشمس في ضحاها، مرتفعة، وشامخة، وفخورة، وقادرة.

وأحيانًا تبدو كالقمر، بوجهين، لكننا لا نرى إلا وجهًا واحدًا، أما الوجه الآخر فهو يبقى بعيدًا عن أنظارنا، غارقًا في غموضه وعزلته، نائيًا عن الجميع.

أحيانًا تكون مثل نهار منفتح على الجميع.

وفي أحيان أخرى تنسحب وتبتعد عن الأنظار، تخفي كل شيء كما يفعل الليل.

أحيانًا كالسماء في اتساعها ورحابتها.

وأحيانًا كالأرض في كل تضاريسها، سهلة منبسطة مرة، وعِرة في مرات أخرى، منخفضة حينًا، ومليئة بالمرتفعات في أحيان أخرى.

كالأرض في وديانها وغاباتها وصحاريها وقفاريها وبحارها وأنهارها.

في سكونها وزلازلها، وفي جفافها وفيضاناتها.

في أماكنها المعمورة، وفي مجاهلها وأحراشها التي لم تطئها قدم من قبل.

النفس البشرية تشبه كل ذلك وتضمه فيها، بعضها واضح كمعالم في داخلها، والبعض الآخر مبثوث في ثناياها وخفاياها.

نفس هذه المعالم يمكن أن تقود إلى طرق مختلفة، حسب طريقة قراءة خريطة النفس البشرية.

بعضها يقود إلى الفجور، وبعضها يقود إلى التقوى.

الخيارات موجودة ومتاحة، وكذلك الإرادة الشخصية والقرار لكل فرد.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [سورة الشمس].

هذه النفس البشرية، يفوز في استثمارها من يقرؤها بعمق، من ينمِّيها مراعيًا احتياجاتها وخباياها وتقلباتها ومناطق ضعفها ونقاط قوتها، من يحترم جهله بها، ويدرك أنه مهما أدرك منها، فهو لا يزال لم يدرك إلا القليل.

وعلى العكس من ذلك، يخيب من يعامل هذه النفس البشرية بطريقة «الدس»، يخفي منها شيئًا تحت شيء، يتجاهل ضعفها ولا يرى غير قوتها، يخفي حيرتها تحت ثقتها، يتعامل مع مرتفعاتها وسهولها ويتناسى مجاهلها وأحراشها.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١﴾ [سورة الشمس].

ثمود نموذج على هذا. «طغواها» رمز لكل من لم يرَ إلا القوة والجبروت في نفسه. تجاهل الضعف والاحتياج. ثمود نحتوا بيوتهم في الصخر، ويبدو أنهم تعاملوا مع أنفسهم كما لو كانت بيوتًا من صخر. لم يروا إلا الصخر الصلب في نفوسهم، ولم يدركوا أن الصخر الصلب بلا مرونة، ينتهي بالتحطُّم مرة واحدة.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ **[سورة الشمس].**

هذه القراءة الثمودية للنفس البشرية لا تزال قائمة. آنذاك، قالت ثمود: وما بال الناقة؟ ما المشكلة في عقرها؟ هل هذا الأمر سيغضِب الله؟ ولماذا يغضب لهذا الأمر التافه؟

إنها مجرد ناقة.

ولا يزال هناك من يتعامل بالمنطق نفسه مع كل أمر أو نهي أو تحريم.

ولا يزال هناك من يتعامل مع النفس البشرية على أنها تتكون من «شمس وضحاها فقط»، ويتجاهل القمر والليل والوجه الآخر من القمر...

لا يزال هناك من يتعامل مع النفس البشرية على أنها سهلة منبسطة فقط، ويحاول تجاهل وإخفاء مرتفعاتها وأحراشها ومجاهلها.

ولا يزال هناك من يدفع ثمن هذا التعامل مع النفس البشرية.

والثمن يُدفع من عدة أطراف.

الشرح: عن الفرج «مع» الشدة

عزيزي أنا:

ستأخذك الحياة إلى مشاقٍّ وصعوبات كثيرة، هذا جزء من طبيعة الأشياء. ستتعلم هذا مبكرًا. هذه هي الحياة، بالتعريف.

ولكن في أحيان كثيرة ستبدو لك الأمور كما لو أن طبيعة الأشياء قد زادت عن طبيعتها، عندما تشتد العاصفة وتحاصرك من كل الجهات، وتشعر كما لو أنك تحارب على كل الجبهات.

وقد يزيد الأمر غصة بأن تجد نفسك وحيدًا بين الخذلان واللوم.

ستضيق عليك الدنيا ويضيق صدرك حتى بنفسك، ستشعر أنك وصلت إلى نقطة اللاعودة، وأنك استنفدت كل قدرتك على الاحتمال.

في عين العاصفة، لا ترى غير العاصفة وعسرها.

لكن عندما ينجلي كل شيء، ستكتشف -مهما كانت خسائرك- أنك أصبحت أقوى، وأنك في العاصفة القادمة ستواجهها أفضل.

وعندما ستنظر إلى الصورة الكبيرة، ستجد المواسم الأربعة في كل فصل من فصول حياتك.

حتى في فصل الشدَّة.

***

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [سورة الشرح].

نزلت هذه السورة بعد أن عاد الوحي من بعد فترة انقطاع، انقطاع جعل صدره عليه الصلاة والسلام يضيق...

ثم عاد الوحي مرة أخرى فإذا بكل شيء يبدو مختلفًا حتى قبل تجربة الانقطاع. لم يعد كل شيء كما كان من قبل، بل صار أفضل. التجربة قوَّته وزادت من قدرته على التحمُّل. صدره عليه الصلاة والسلام أصبح يتسع للعالم بأسره وقد وسَّعه الله بالوحي النازل عليه...

﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ [سورة الشرح].

في أغلب التفاسير، وزرك تعني ذنبك الذي سبق النبوة. أي إن الآية تذكِّره عليه الصلاة والسلام بمغفرة الله لكل ما سبق النبوة.

لكن كلمة (وِزر) تعني أيضًا الثقل والحمل، وهي الأصل في المعنى، ومن هذا المعنى جاء معنى «الذنب» الذي يكون ثقلًا يحمله صاحبه.

لكن الثقل والحمل قد يكون أيضًا «الهم»، ولعل ما كان يهمه عليه الصلاة والسلام أكثر شيء في تلك المرحلة كان همَّ انقطاع الوحي.

وها هو الوحي يعود ليزيل ذلك الثقل الذي كان يحمله عليه الصلاة والسلام على ظهره.

ظهره الذي تحمَّل انقطاع الوحي صار أقوى، بات مستعدًّا لتحمُّل الكثير مما سيراه لاحقًا، الكثير مما لا نعرف كيف سيكون تحمله له لولا هذه التجربة... لكنه خرج منها أقوى وأقدر...

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٦﴾ [سورة الشرح].

إنه اليسر الذي يصاحب العسر. ليس «بعد» العسر، بل معه، يصاحبه. إنه الفرج الذي يفتح بابه مع الشدة، وليس بعدها.

مجرد تجربة العسر والصمود في وجهه هو يسر كبير، ربما لا نعرف قيمته إلا لاحقًا، لكنه يجعل الأمور أيسر بكثير بعدها، يمدك بمناعة تجعلك أقدر على مواجهة الكثير من المصاعب القادمة. كل عسر يمدك بيسر تستعمله في العسر القادم. لا. بل مع كل عسر يسران، يسر الصمود في أثناء التجربة، ويسر يكون معك في تجربة قادمة، هذا ما نقوله عن التجارب كبيرة الألم في حياتنا. لقد تغيَّرنا، صرنا أقوى وأشد صلابة. كلٌّ منا عندما يمر بتجربة كبيرة يكون «ما قبل التجربة» ليس مثل ما بعدها... الظَّهر الذي حمل «الثقل» وقت العسر صار أقوى وأكثر قدرة على الحِمل.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [سورة الشرح].

عندما تنتهي التجربة بعسرها وعاصفتها وخذلانها وشدتها، خذ يسرها وعد مجددًا إلى ربك...

هذا هو الذي يجعل عسرها يذهب، ويبقى اليسر فيها. هذا هو ما يجعل الصورة الكبيرة متوازنة. والأشياء ضمن طبيعتها.

سورة التين: الخلود، تقريبًا

عزيزي أنا:

ربما تكون فيك –كما في أغلب الناس– بقايا من نزعة بشرية نحو الخلود، كانت موجودة في أبينا آدم، بل كانت جزءًا من سيناريو ما حدث معه، وبالتالي ما حدث معنا، وبقيت تلك النزعة عند أولاده من بعده، وظهرت في أشكال كثيرة، منها ملاحم وأساطير متشابهة في حضارات مختلفة، صوَّرت تلك الرغبة واستحالة تحقيقها في آن واحد.

مع الوقت، أصبح البشر أكثر واقعية وتواضعًا في طموحاتهم، الموت يقين، الخلود الدنيوي مستحيل. لمن

يؤمن منهم بالآخرة، فالخلود الأخروي مؤجل ويسبقه حساب يحدد نوعية هذا الخلود.

لكن ثمة بقية باقية من هذه النزعة، بقية أكثر عقلانية من النزعة الأصلية التي تبحث عن الخلود في إكسير أسطوري تحفه المخاطر والمغامرات.

هذه البقية الواقعية تتلخص في أن يبقى الأثر البشري، لا الخلود الدنيوي المادي للشخص، أن يبقى أثره بعد رحيله.

سواء كان هذا محدودًا بـ «الذِّكر الطيب» عند عائلته وجيرانه، أو متسعًا ليشمل أثرًا أكبر على مجتمعه، سواء كان هذا الأثر علميًّا أو إصلاحيًّا أو فنيًّا.

وسواء كان هذا الأثر يبقى لأشهر أو سنوات، أو ينال فرصة للبقاء أكثر وأكثر، فإنه يحقِّق جزءًا من تلك الرغبة الدفينة في أعماق البشر.

الأمر مشروع تمامًا، ولكن أحيانًا «كمية الأنا» فيه يمكن أن تكون خطرة وتقود إلى الهاوية. لا يمكن إلغاء الأنا تمامًا في هذه الحالات...

لكن هناك حدًّا أدنى منها لو تم تجاوزها فإنها قد تقود إلى...

أسفل سافلين.

***

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾

[سورة التين].

تين وزيتون؟ عادة يكون القسَم بشيء يبدو لنا أكبر، هكذا تعوَّدنا، وهكذا فهمنا ما أقسم الله به، لكن التين والزيتون؟ ثم تتحدث عن «أحسن تقويم» و«أسفل سافلين».

ما الذي يحدث بالضبط؟

هذا التين يرمز للنجاة عبر كل الظروف الصعبة. أنواع التين كثيرة جدًّا، وبعض هذه الأنواع سلالاتها قديمة جدًّا لدرجة أنها تعايشت مع الديناصورات، قبل أكثر من 65 مليون سنة. مرت بالأرض ظروف بالغة الصعوبة، انقرضت أنواع وظهرت أخرى، تبدَّل المناخ عدة مرات، كثير من الأحياء لم تتمكن من مواجهة التغيرات، لكن منها من نجا، تأقلم، وتجدد، وبقي...

والتين من هذه الأحياء التي نجت عبر كل الأهوال التي مرت بها الأرض قبل ظهور الإنسان أصلًا. التين أقدم منا وأعرق، ربما تجربته في مصارعة التغيرات جعلته رمزًا للحكمة في أغلب الحضارات الإنسانية. تخيلوا نوعًا من المخلوقات عمره أكثر من 65 مليون سنة! بالتأكيد تجربته هذه أكسبته حكمة...

والزيتون؟

الزيتون من الأشجار المعمِّرة، ليس وحده ضمن فئة الأشجار المعمِّرة، لكن أشجار الزيتون المعمِّرة وحدها تبقى منتِجة حتى عندما يتجاوز عمرها 1000 عام...

الزيتون يمثِّل الرمز لهذا الإنتاج المستمر، لكل ما يثبت فاعليته عبر القرون والقرون... أشياء قليلة جدًّا في تاريخ الإنسانية يمكن أن تصمد عبر القرون، لكن الزيتون من ضمنها، وهو يرمز لها جميعًا، رمز للقيم التي بقيت وتبقى صامدة، وتبقى البشرية في حاجة إليها، حتى لو بدت الأخيرة كما لو أنها مهتمة أكثر ببعض المستجَدات، لكن «الصورة الكبيرة»، الإطار الزمني طويل الأمد هو ما يثبت ما يبقى وما يزول...

وطور سينين؟

الجبل الشامخ الذي شهد استلام موسى للوصايا العشر، رمز للشريعة الشامخة وتعليماتها الأخلاقية الأساسية.

تين وزيتون وطور سينين؟

النجاة إذن، والإنتاج المستمر رغم القِدم، وشريعة إلهية...

﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣﴾ [سورة التين].

لا يُبنى البلد الأمين إلا بما سبق. إنتاج مستمر نافع وشريعة أخلاقية ثابتة.

هذه هي الوصفة التي شملت ما أقسم به الله هنا...

تريد النجاة من أهوال الحياة؟ تريد أن تخرج منها متأقلمًا ومتغيِّرًا لكن دون أن تنكسر ودون أن يفترسك الآخرون؟

تريد أن تبقى منتِجًا؟ أن تتجاوز فائدتك عمرك الافتراضي المحدود؟ تريد أن يبقى أثرك مستدامًا نافعًا؟

ثمة قيم أخلاقية شامخة كالجبل، جاءت من خالق التين والزيتون، وهي التي يمكنها أن تحقق لك ذلك، وهي التي تجعل ثمارك نافعة لبناء «البلد الأمين».

ما هو جواب القسم؟

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾

[سورة التين].

في تقويم يتيح له أن يختار مسار التين والزيتون، مسار النجاة والإنتاج المستدام.

لكن يمكنه أن يكون أيضًا –إن شاء– في مسار آخر تمامًا، أسفل سافلين، وللأسف فكثيرون يختارون هذا...

لكن هذا ليس حتمًا مقضيًّا...

فهناك استثناء كبير، يشبه حلقة مفقودة تعيدنا إلى مسار التين والزيتون...

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾ [سورة التين].

باب هذه «الحلقة المفقودة» مفتوح على مصراعيه، أي إنها ليست مفقودة إلا لمن لا يريد أن يجدها.

باب الخروج من «أسفل سافلين» مفتوح، يقود إلى «أحسن تقويم»... معبَّد بـ «الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

***

تأخذك الآيات على جنب، تهمس لك كما لو أنها تتحدث مع شكوك كامنة فيك:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾ [سورة التين].

ما الذي في السورة يجعل من لديه «شكوك» يراجع نفسه؟

إنها حكمته عز وجل، إنه أحكم الحاكمين.

هذه السورة القصيرة تحمل حكمة تتحدى الزمان والمكان. حكمة النظرة العامة الشاملة بعيدة المدى التي لا يستطيع أن يراها أو يدركها إلا الخالق -عز وجل-.

وحده الدين يمكنه أن يقدِّم لك حكمة كهذه، خارج الزمان والمكان والتفاصيل، وحده الدين يقدِّم لك هذا. كل ما هو «لا دين» لا يستطيع أن يقدِّم لك حكمة كهذه، أو الصورة الكبيرة التي يمكنك فهم المعنى الكامل من خلالها.

وحده الدين يقدِّم المعنى والهدف في وجودك في هذه الحياة.

كل ما عدا ذلك لا يستطيع أن يقدِّم ذلك بحيث يكون متماسكًا منسجمًا مع المعطيات الواردة.

كل ما هو «لا دين» لا يستطيع أن يقدِّم لك غير العبث واللامعنى، مهما وُضعَت «عناوين» مقبولة على ذلك. سيقولون إن الهدف هو «السعادة»، أو «إسعاد الآخرين»، أو «عيش الحياة بأقصاها»، أو «الاعتناء بالأسرة»، أو «مجرد تحقيق الذات» أو ربما «المتعة».

كل ذلك سيبدو محض ترقيع، عبثًا محضًا، أن يكون هذا الهدف الدنيوي العابر هو الهدف من وجودك على الأرض؟

مهما كانت هذه الأهداف مشروعة ونافعة، لكن أن تكون هي الهدف من وجودك؟

يا للعبث! يا للبؤس!

وكل من يريد «الحكمة» حقًّا لا يمكنه إلا أن يقرَّ بذلك.

لهذا جاءت الإشارة إلى «أحكم الحاكمين».

العلق: عن لحظات مغروسة في جيناتنا

عزيزي أنا:

إن لم تكن «لحظة الغار» قد دخلت بعد في أعماقك، لم تصبح بعد جزءًا من وعيك وذاكرتك وضميرك، فقد فاتك الكثير، اذهب وافعل شيئًا لنفسك كي تقتحمك تلك للحظة، كي لا يفوتك ذلك الكنز.

اقرأ ما حدث، جرِّب شعور تخيُّل ما حدث، حاول أن تكون هناك، اسمح للرعشة أن تزورك، للقشعريرة أن تكون شهيقك وزفيرك ولو للحظات.

لا تترك هذه الفرصة تفوتك.

لا تدع الغار يفوتك.

ادخله برجلك اليمنى، وسمِّ باسم الله.

***

الغار مثل شق صغير قرب قمة الجبل.

والجبل شديد الوعورة، ارتفاعه أكثر من 2000 قدم، نحو 642 مترًا، انحداره شديد من الأعلى، ثم يبدأ بالانحدار بشكل متدرج...

وهو الأعلى بين الجبال من حوله. قمة الجبل هناك هي قمة وحيدة جدًّا، لا شيء يؤنس وحدتها. الغار أيضًا، قرب القمة، ممر ضيق جدًّا بين صخرتين، لا يبدو أنه يقود إلى شيء على الإطلاق.

لكنه يفعل، ويصل إلى الغار.

لكي تصل إلى الغار عليك أن تصل إلى قمة الجبل، ثم تهبط أمتارًا صعبة شديدة الوعورة والانحدار إلى حيث الغار.

ويطل الغار على مكة والكعبة بالذات، كما لو أنه عليه الصلاة والسلام، حتى وهو يختار العزلة، حتى وهو يختار أصعب نقطة ممكن أن يلحق به فيها إنسان، يختار أن يكون في نقطة تربطه بعالمه وبمجتمعه... وبالكعبة...

حتى وهو ينسحب من الجميع ليتقرب إلى الله -عز وجل- فإنه لا يغلق الباب خلفه.

ثمة شيء يربطه بعالمه.

***

للحظات، ربما كانت تبدو عادية، توقف الكون عن الحركة، وقف كل شيء على رؤوس أصابعه،

حبست الطبيعة أنفاسها...

لحظات طويلة كالدهر، كثيفة كالأزل، بدا فيها كما لو أن الصمت سيد هذا العالم ولغته الوحيدة.

كما لو أن ما سيحدث الآن، الآن وهنا في الغار، سيكون مؤثِّرًا ومهمًّا في كل ما سيحدث لاحقًا.

حبس العالم أنفاسه ترقبًا.

بينما كان البشر يتصورون أنها مجرد لحظة عادية أخرى.

***

ثم حدث كل شيء فجأة..

فجأة.

نص الحديث يقول (جاءه الحق...).[1]

(1) صحيح البخاري 3

وفي رواية أخرى: (فجئه[1] الحق...).

والصحيح أن الحق قد جاءه وفاجأه في الوقت نفسه.

الحق؟!

الحق!

هذا هو اللفظ الذي اختاره عليه الصلاة والسلام كي يعبِّر عن الوحي عند لقائه به أول مرة..

الحق!

كما لو أن كل ما سبق ذلك، كل ما سبق هذا اللقاء، لم يكن حقًّا أو حقيقة، كان وهمًا أو باطلًا.

والآن، الآن فقط: الحق.

هذه هي لحظة الحق.

هذه هي لحظة الحقيقة..

كل ما سوى ذلك، كان زمن الوهم.

***

لا بد أن الغار كان مظلمًا جدًّا.

لم يرَ عليه الصلاة والسلام شيئًا هذه المرة..

فجأة هناك صوت يكسر حيطان الصمت العالية!

(1) صحيح البخاري 4953

صوت غير متوقَّع. الغار في نقطة بعيدة في جبل وعر وليس من السهل الوصول إليه.

صوت الصمت هو الصوت الوحيد المسموع والمتوقَّع هنا.

لكن.. فجأة، الحق! له صوت.

فَجاءَه المَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: «اقْرَأْ»، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ».[1]

اقرأ؟!

الكلمة الأولى.

ليست أقل صدمة من الصوت الصادم الذي هز قلب محمد بعد أن حطَّم جبل الصمت.

اقرأ؟

أقرأ ماذا؟ أقرأ كيف؟

قلب محمد يخفق بشدة بلا شك، لكن جوابه واعٍ يدل على وعي تمكن من امتصاص الصدمة.

«ما أنا بقارئ».... لستُ ممن يقرؤون الكتب، إن كان هذا قصدك... القلب يخفق بشدة، لكن الوعي لا يزال ينبض...

---

(1) صحيح البخاري 3

«فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ».[1]

أخذني!

أمسك بتلابيبي!

تخيل أن يأخذك ما لا تراه، ولكن تستشعره فقط ملء كيانك وكيانه، تخيل أن يحتضنك، يعتصرك...

هكذا فعل الحق معه عليه الصلاة والسلام عندما جاء إلى حراء.

قال الرسول -عليه الصلاة والسلام- (فغطَّني).

وغطَّني تعني العصر والكبس، وتعني أيضًا الغطس في الماء.

هكذا فعل معه الحق...

احتضنه بشدة، بعنف، حد الغطس، حد التماهي.

تراه كان حضن حنان يخفِّف عنه عناء الرحلة القادمة؟ أم حضن دعم وقوة يقوِّيه لما سيأتي؟

«ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي».[2]

(1) صحيح البخاري 3

(2) صحيح البخاري 3

تركه، أرسله، كما لو أنه قد أطلقه بعيدًا، ممتلكًا كل الخيارات..

وقال له مجددًا: اقرأ.

ووعي محمد لا يزال على أشده: ما أنا بقارئ.. لا يمكنني أن أزيِّف ما أقول.

ثم تدفق الحق نورًا.

فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ **[سورة العلق].**

قراءة مختلفة إذن، ليست قراءة فك الحرف، بل قراءة فك العالم، باسم الرب الخالق.

اقرأ إذن كانت مختلفة جدًّا.

هذه المرة لا يمكن أن يقال ما أنا بقارئ.

ثم ذهب الملك..

انتهى الأمر..

تنفس العالم الصعداء.

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَرْجُفُ فُؤَادُهُ.[1]

(1) صحيح البخاري 3

فلننتبه هنا إلى (رجع بها)، الأمر يصوِّر كما لو أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان يحمل شيئًا بيديه.

فرجع بها!

تراها الآيات؟

تراها التجربة التي مر بها؟

تراها المشاعر؟

لا نعرف، لكنه رجع بها، يحملها، وفؤاده يرتجف وهو يحملها، ربما من ثقل الحمل.

***

تخيله، عليه الصلاة والسلام، وهو يهبط من الجبل الوعر، ويحمل ما مر به في قلبه.

تخيله، يتعثر، يكاد يسقط هنا أو هناك، يتمسك بحجر في درب النزول كي لا يسقط. كان يلهث حتمًا، نكاد نسمع لهاثه ودقات قلبه بغير انتظام، وهو يتحسس الدرب المظلم.

ها هو قد غادر الجبل، بينه وبين مكة ثمة درب لا يقل عن كيلومترات أربعة، الأدرينالين الذي يفور في جسده من هول التجربة يمده بطاقة النجاة، يريد أن يصل إلى حيث خديجة، بر الأمان، المرفأ الذي يمكنه أن يقف عنده ويتنفس قليلًا.

كان درب الكيلومترات الأربعة صعبًا بلا شك، كل خطوة يهرولها عليه الصلاة والسلام كانت تزيد صعوبة عن التي قبلها بسبب ما يحمله مما مر به، الآيات، التجربة. اقرأ... كل شيء.

يلهث ويهرول ويريد خديجة..

عليه الصلاة والسلام.

***

ثم وصل ...

فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ[1]

وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا.[2]

عندما وصل إلى بر الأمان، تلاشت قوته التي مدته بالقدرة على الوصول إلى بيت خديجة. بدأ يرتجف، على الأغلب هول التجربة التي مر بها جعل مركز السيطرة على حرارة الجسم يختل تمامًا، فها هو يرتجف بردًا ويشعر بحاجته إلى الأغطية.

(1) صحيح البخاري 3

(2) صحيح البخاري 4924

وضعوا عليه الأغطية، خديجة وربما بناته أو خادمات في البيت...

حتى هدأ قليلًا وتمالك أنفاسه..

لكنه لم يخبر أحدًا غير خديجة..

فَقَالَ: «يَا خَدِيجَةُ، مَا لِي» وَأَخْبَرَهَا الخَبَر.[1]

فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي».[2]

يا خديجة! ما لي؟

ما الذي يحدث لي يا خديجة؟

يا خديجة لقد خشيتُ على نفسي.

لقد خاف على نفسه عليه الصلاة والسلام، خاف أن يكون كل ما مر به شيئًا مثل الجنون، أو مرضًا.

هو يعرف أن ما مر به حقيقة، لم يكن ما حدث وهمًا ولا خيالًا نفسيًّا، وهو الذي اعتصره الحق ثلاث مرات حتى أجهده.

لكن.. يا خديجة، ما لي؟!

---

(1) صحيح البخاري 6982

(2) صحيح البخاري 3

فَقَالَتْ لَهُ: «كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»[1]

قالت له: كلا! ولم تقل له لا!

لا، تفيد النفي فقط.

أما كلا، فهي ردع وزجر واستنكار، إياك أن تفكر بهذه الطريقة يا محمد، بل هي البشرى. لن يخزيك الله أبدًا بأن يمسَّك بسوء في عقلك وأنت على ما أنت عليه من خُلق عظيم.

سيدة نساء العالمين، خديجة.

نصُّ الحديث هنا يقول إنها آمنت به عليه الصلاة والسلام حتى قبل أن يؤمن هو بنفسه، كان لا يزال خائفًا، يقول يا خديجة ما لي، عندما كان لا يزال يخشى أن يكون كل ما مر به شيئًا لا يعول عليه.

سيدة نساء العالمين، أول من أسلم من العالمين.

ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ قُصَيٍّ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخُو أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ

(1) صحيح البخاري 6982

الكِتَابَ العَرَبِيَّ، فَيَكْتُبُ بِالعَرَبِيَّةِ مِنَ الإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ.[1]

انطلقت به، سيدة الحكمة، لم تقل له اذهب أنت، بل قادته هي، كانت معه، وتسبقه بخطوة ربما، إلى ورقة بن نوفل، إلى حيث سيسمع عن التجارب السابقة. كانت قد فهمت فورًا أين تجد الجواب الذي يحتاج إليه محمد.

قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا بْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا بْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟».

ورقة رأى فورًا ناموس موسى...

كان نصرانيًّا، لكنه لم يرَ عيسى في القصة، بل رأى موسى.

لماذا؟

لأن ناموس موسى هو الذي تأسس عليه الدين اليهودي، والذي كان عيسى من أنبيائه، حتى لو أسَّس أتباعه لاحقًا دينًا آخر، لكنه في الأساس كان لإصلاح الدين اليهودي.

(1) صحيح البخاري 6982

أما هنا، فورقة يرى الدين الجديد، الناموس، لا إصلاح لما سبق، بل تأسيس جديد.

أما عليه الصلاة والسلام، فقد تلقى للتو خبرًا آخر، أن قومه سيخرجونه.

لذا لن يعلِّق على كل ما قاله ورقة إلا بهذا السؤال: أوَمُخرجيَّ هم؟

هل سيخرجه قومه؟! هل سيترك مكة؟

قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ.[1]

ها هي الصورة تتضح أمام محمد إذن.

كانت الليلة صعبة وثقيلة وطويلة...

لكن سيكون أمامك درب طويل يا محمد.

عليه الصلاة والسلام... كانت أطول ليلة في التاريخ.

لكن بها ستبدأ رحلة ستغيِّر وجه التاريخ.[2]

تلك كانت لحظة الغار، أشرقت على العالم.

ويمكنك أن تجعلها تشرق فيك.

***

(1) صحيح البخاري 3

(2) من السيرة مستمرة للكاتب، باختصار

كل شيء بدأ من هناك، لا يمكن لنا أن نقرأ سورة العلق دون أن نقرأ فيها تلك البداية.

مشهد الغار المهيب، السكون والصمت، ثم الوحي يأتي بتلك الكلمة.

اقرأ.

لا يمكن لك أن تقرأ سورة العلق دون أن تستعيد كل شيء. كما لو أنك كنت هناك. كما لو أن المشهد أصبح جزءًا من ذاكرتك الجمعية. كلما قرأت السورة أخذنا «فلاش باك» فوري إلى ظلمة الغار التي تسرَّب منها النور إلى العالم.

تربطنا تلك اللحظة به عليه الصلاة والسلام، تصنع بيننا وبينه رابطًا سريًّا عجيبًا، لا يمكن أن يفسَّر أو يفهَم بسهولة. شيء ما في ذلك الحدث المهيب يجعلنا نشعر بحبه عليه الصلاة والسلام، نشعر بأنفاسه قريبة من أنفاسنا، بدقات قلبه تنبض في قلوبنا.

عند اقرأ سنتذكر النبي -عليه الصلاة والسلام- وهو يقول ما أنا بقارئ، نقف خلفه كما لو أننا نريد أن نحتمي به ونحن نرتجف من هول الموقف. لحظة اللقاء الأول بالوحي. سنحبس أنفاسنا بينما الوحي يحتضنه عليه

الصلاة والسلام، ثم نتنفس الصعداء مجددًا عندما يطلقه، ويقول الكلمة مجددًا: اقرأ.

ثم يحتضنه مجددًا، ونحبس أنفاسنا مجددًا، ثم نتنفس الصعداء كما لو أن العالم كله قد حبس أنفاسه معنا.

ثم تأتي بقية الآيات مثل شلال من نور يغمرنا فجأة، اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم.

نكاد نسمع دقات قلبه بعد أن انتهى ذلك الزلزال المبين. نتلمس خطواتنا ونحن نخرج خلفه من الغار، ينزل من الجبل، نتتبع صوت دقات قلبه كما لو أنه ينبض بالنيابة عن البشرية بأسرها.

نعرف جيدًا إلى أين يريد أن يذهب. في أعماق أعماقنا نريد أيضًا أن نذهب إلى هناك. إلى أمنا التي نهرع إلى حضنها المضمون دائمًا، إلى التي دائمًا لديها كل الحلول. نصل ونحن نلهث خلفه، نقف خلف الباب لننصت.

يقول إنه قد خشي على نفسه. يقول لها: يا خديجة مالي؟ نكاد نقتحم لنقول له ما يطمئنه عليه الصلاة والسلام. لكن سيدة الحكمة تأخذ كل الكلام. تقول له ما

يطمئنه، ويطمئننا أيضًا، ثم تذهب به إلى ورقة بن نوفل، ويقول له ما يقول، ونحن لا نزال ننصت خلف الباب.

كل ذلك قد حُفر في ذاكرتنا كما لو أننا قد حضرناه. لا يمكن أن نقرأ السورة دون أن نستحضره في أذهاننا كما لو كان حلمًا قد رأيناه في الليلة الماضية، أو في حلم من أحلام الطفولة. يحضر كل شيء مختصرًا مكثفًا في ثانية، أو في وحدة قياس زمنية لا نعرفها بالضبط.

اقرأ باسم ربك؟ نقرأ ماذا؟ سنعرف لاحقًا أن كل ما سيلي من الآيات، كل السور، ستكون ضمن ما ورد في هذه الآية الأولى. كل القرآن، علينا أن نقرأه «باسم ربك الذي خلق»، أول علاقتنا به أنه خالقنا من شيء كالعدم، وأول كلمة يقدمها لنا في تعريفه بنفسه عز وجل وهو الغني عن التعريف هي: اقرأ...

يقول لنا أن نقرأ القرآن، والعالم، والكون، من خلال هذا المنظار، من خلال اسمه، الخالق، الأكرم، الذي علَّم بالقلم. بين اقرأ وبين «الذي علَّم بالقلم» علاقة واضحة، فالقراءة بهذا المعنى عملية منتجة، ومن نتاجها «القلم» والتعلم بالقلم.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [سورة العلق].

ولقد رأينا ذلك دومًا. الإنسان يطغى، عندما يزداد في المال والثروة. وأيضًا عندما «يستغني» عن القراءة من خلال اسم ربك الذي خلق. عندما يفصل القراءة عن أي مبدأ مسبق أو قيمة مطلقة، رأينا ذلك كثيرًا. رأينا نتائج ألَّا تكون هناك قراءة من الأساس، وعندما تكون هناك قراءة من دون «اسم الله».

رأينا، ودفعنا جميعًا –ولا نزال ندفع– ثمنًا باهظًا.

ولكن السورة نفسها التي بدأ فيها كل شيء تقول لنا:

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [سورة العلق].

تبدأ السورة بـ «اقرأ»، وتنتهي بـ «اسجد واقترب».

تراها ثلاث مترادفات مترابطة بعضها ببعض؟

اقرأ باسم ربك الذي خلق، هي ذاتها السجود (بكل معانيه)، وهي الاقتراب منه عز وجل.

اقرأ باسم ربك، اسجد، واقترب.

نقطة انتهى.

القدر: عن المسكوت عنه، الذي يصنع القدر

عزيزي أنا:

سؤال التسيير والتخيير سيطرأ على بالك حتمًا. سؤال «هل أنا مسيَّر أم مخيَّر؟» يمكن أن يُعتبر جزءًا من قدر المرور في مرحلة المراهقة باتجاه النضوج، وربما يعلق أكثر من ذلك أحيانًا ليكون جزءًا من أسئلتك المزمنة طيلة حياتك.

المشكلة أنك في البداية تريد جوابًا نموذجيًّا واضحًا قاطعًا من (إما/أو)، مسيَّر أو مخيَّر، أبيض أو أسود.

مع الوقت ستكتشف أن الجواب يقع في مزيج من الجوابين، وأن قدرك في الحقيقة هو المزيج الفعال من التسيير والتخيير، نسبة كل منهما في هذا المزيج ستعتمد عليك على نحو خاص. ستكتشف أيضًا أن جزءًا مهمًّا جدًّا من حياتك ستقضيه وأنت تختار أن تغيِّر ما تصورت أنه تسيير، وأن تستسلم لما تصورت أنه ضمن خياراتك.

لديك عدة «محددة» ترثها من والديك وبيئتك والفترة الزمنية التي وُلدت ضمنها.

وهناك مفترقات طرق كثيرة تتعامل معها من خلال ما ورثتَه، بعض خياراتك هذه ستتأثر أيضًا بما ورثتَه، وبعضها سيؤثِّر على عدتك نفسها.

الأمر متداخل جدًّا بين التيسير والتخيير، متداخل لدرجة أنك لا تستطيع أن تفرِّق حقًّا بينهما. هل كنتَ مسيَّرًا عندما حاربت ظروفك لتغيِّرها أم كنت مختارًا لكل معاركك بوعي كامل؟ وهل نستطيع حقًّا أن نميِّز بين الأمرين؟

كم نسبة كل من التسيير والتخيير في حياتك؟ لا أحد يستطيع أن يرد بحسم على ذلك.

المهم أنك مسؤول عن كل عملك.

وعملك هو قدرك.

كل ذلك ضمن علم الله المسبق بكل شيء.

***

في سورة القدر، هناك حديث بالتأكيد عن ليلة القدر.

لكن هناك حديثًا آخر، هو الذي يجعل لليلة القدر كل هذا القدر والمكانة.

إنه الضمير المتصل في الفعل «أنزلناه».

القرآن. السورة لا تذكر اسمه، بل تقول لنا فورًا «إنا أنزلناه في ليلة القدر»، دون أن تقول لنا ما هو الذي أنزلناه. لكنه هذا الحضور المبين الذي لا يحتاج إلى ذكر أو إشارة. غياب الذكر الصريح يجعلنا ننتبه إلى حضوره أكثر، كما لو أن غياب الاسم يستدرجنا لنفكر: ومن غيره يمكن أن يكون؟ ما هو الذي يمكن أن يكون بهذا القدر؟ بهذه الأهمية؟ سواه، القرآن.

إنها تلك الليلة التي نزل فيها الوحي لأول مرة إذن.

الليلة التي ابتدأت فيها آخر فرصة للبشرية لكي تستلم الوحي الأخير، الرسالة الخاتمة الأخيرة.

لا بد أنها تكون ليلة على مستوى هذه الفرصة الأخيرة.

خير من ألف شهر؟

الألف شهر عمر كامل. أكثر من 80 عامًا بقليل. أغلب الناس لا يعيشون إلى هذا العمر. متوسط عمر الإنسان عبر العصور اختلف وتحسَّن كثيرًا، لكنه لا يزال ضمن هذا الرقم (أو أقل، حسب الدولة).

هي ليلة إذن، خير من عمر بكامله، بحلوه ومره ومراحله وتجاربه ومحنه وامتحاناته.

أكيد هي كذلك، لأن فيها نزل ما يمكن أن يوجِّهك في رحلة حياتك بأسرها، نزل فيها ما يمكن أن يجعل هناك هدفًا وبوصلة ومرساة ومرفأ لحياتك.

نزل فيها هذا الكتاب الذي يمكنه أن يكون مصباحًا تحمله في ظلمة رحلتك.

وربما من دونه، ستكون رحلتك تخبطًا ودورانًا حول ذاتك.

***

اسمها ليلة القدر لعظيم قدرها، وقيل لأن الله يقدِّر أرزاق السنة القادمة فيها.

بين هذين المعنيين تستطيع أن تفهم أن «قدرك» ومكانتك أمر يمكنك أن تغيِّره دومًا، وأن ما اعتبرتَه قدرًا ساكنًا لا يتغير طيلة حياتك يمكنه أن يتغير فعلًا، وأنك ربما تستحق مكانة أفضل عليك أن تسعى لتحقيقها.

العفو؟ المغفرة؟ التخلص من أعباء أخطائك؟

كلها مهمة وأساسية في ارتقائك إلى «مكانتك» الأقرب، إلى قدرك الأنسب، لا يمكنك أن تكمل رحلتك بسلام إن كنت مثقَلًا بالكثير من أخطاء الماضي.

كل دعاء تطلب فيه منه عز وجل أن يشفيك من أمراضك في الداخل والخارج، من عقدك التي تحاشيتَ إبرازها للناس رغم أنها ربما تحكمتْ في سلوكك، من مخاوفك المكبوتة، من ذنوب ارتكبتَها تحت تأثير هذه العقد وتوهمك أنها تتحكم فيك.

كل دعاء فيه هذه الصراحة والمكاشفة، مع العليم بذات الصدور، ومع نفسك، سيكون خطوة أكيدة في تخلصك من كل هذه القيود.

بعد مكاشفة مؤلمة كهذه، بعد مواجهة كل عيوبك أمامه عز وجل..

ستشعر بالسلام..

فهي سلام، حتى مطلع الفجر.

وبعدها، سيكون أمامك طريق عليك أن تمضي فيه، بخطوات أخرى، مختلفة.

البيِّنة: مع مرور الأشخاص

عزيزي أنا:

قبل أن تنضِجك الحياة بخبراتها وتجاربها وطعناتها وخيباتها، قد تمتلك صورة مبالغة في مثاليتها عن «البشر»، تحديدًا عن كيفية تعاملهم مع الحقائق.

ستعتقد أن وجود البراهين والأدلة الواضحة على أمر ما كافٍ لتصديقه والإيمان به.

وعندما تراهم لا يصدِّقون، رغم كل ما سبق، تكاد لا تصدِّق ما تراه.

هناك خلل ما. لا بد أن هناك خللًا ما، لعلهم لم يرَوا البراهين أو لم تصل إليهم أو أي شيء آخر.

نعم، هناك خلل ما، لكن ليس بالضرورة في الاحتمالات التي فكرتَ فيها، فهذه مما يمكن تجاوزها وتعديلها، لكن هناك أحيانًا خللًا في مناطق أعمق لا يمكن تحديدها أو رؤيتها بسهولة.

مع مرور المزيد من الخيبات، نكتشف أن النفس البشرية أعقد بكثير من الصورة المثالية المسطَّحة التي كنا نمتلكها عنها، وأن ما يبدو لنا واضحًا جليًّا كوضوح الشمس في يوم صيفي قد لا يبدو كذلك لمن يفضِّل أن يضع عدة نظارات بألوان مختلفة فوق عينيه.

معنا قد يبدو الأمر ببساطة 2 + 2 = 4، منطق محسوم لا يحتاج إلى مراجعة أو إعادة نظر أو تدقيق.

مذهولين سنكتشف أن البعض يتعامل مع هذه المعادلة الرياضية البسيطة بتعقيد يفوق قدرتنا على الإدراك، وأنه ينتهي –بعد عمليات حسابية متداخلة– إلى نتيجة مختلفة تمامًا.

حسب البعض، ناتج 2+2 قد يكون أي رقم آخر ما عدا 4.

في البداية لن تصدِّق ما يحدث. هل هذا مقلب وهناك كاميرا خفية تصوِّر رد فعلك؟ الأمر واضح جدًّا. لماذا هذا التعقيد وكيف يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة؟

لا كاميرا خفية هناك.

لعل الأمر خاص بهذا الشخص تحديدًا؟

ومع مرور «الأشخاص»، ستكتشف أن الأمر ليس نادرًا كما تصورتَ أول الأمر، وأن النفس البشرية يمكن أن تعج بتعقيدات وتحيُّزات ودهاليز خلفية وممرات سرية، وكلها يمكن أن تنتهي إلى هذا الذي لا نصدِّق أنه ممكن الحدوث.

تكذيب الحقيقة رغم أنها واضحة، مع براهينها وأدلتها.

***

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١﴾ **[سورة البينة].**

صنفان، يبدوان مختلفَين.

الصنف الأول مرتبط بـأهل الكتاب.

والصنف الثاني: مشركو العرب.

هناك فوارق كثيرة بين الصنفين.

لكنهما في هذا السياق كتلة واحدة، غير منفكِّين عن بعضهما بعضًا.

لماذا؟

لأن موقفهما من البيِّنة التي ستأتي هو الذي سيحدد إن كان اختلافهما حقيقيًّا أم أنهما في الحقيقة متشابهان غير منفكِّين.

حسب منظومة أهل الكتاب المعرفية: هناك نبي سيأتي آخر الزمان.

لو رفضوه، فهذا يعني أن إيمانهم بكتابهم مجرد شكليات، مجرد إرث لقنوه من آبائهم، وعندما جاء البرهان من خارج هذا الإرث، رفضوه وجحدوا به.

كذلك المشركون، يعبدون الأحجار التي ورثوا عبادتها عن آبائهم، يعرفون أنها لا تضر ولا تنفع، يدركون هذا، لكنهم رغم ذلك يجحدون البيِّنة التي جاءتهم.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤﴾ **[سورة البينة].**

نقطة الانطلاق والمفارقة الحقيقية تُحسب بعد مجيء البيِّنة. هنا الامتحان الحقيقي الذي سيبيِّن إن كان الكتاب قد هُضم فعلًا وفُهمت معانيه ومقاصده، أم أن التمسُّك

به كان لمجرد أنه إرث الآباء بمعزل عن القيم المحتواة فيه.

هنا النقطة التي يتفرق فيها أهل الكتاب، بعضهم يذهب باتجاه طريق الصواب، وبعضهم يذهب إلى تحيُّزاته لنفسه وإرثه ولو على حساب الحقيقة، ولو كان يدرك أنها الحقيقة.

قبل أن تأتي البيِّنة، لا يمكن الحكم على شيء.

لكن البيِّنة تضعنا جميعًا أمام أنفسنا، وجهًا لوجه.

تنظر إلينا عينًا بعين وتسأل: لو كنتَ أمام خيار مماثل، أي طريق ستسلك؟

***

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝٣﴾ **[سورة البينة].**

في عالم ينظر بعين المادة إلى ما هو قيِّم وما هو ليس بقيِّم، تأتي البيِّنة لتعيد ترتيب أولويات القيم وقيمة الأشياء.

فيها كتب «قيِّمة».

الكتب هي القيِّمة، لا الذهب ولا الأحجار الكريمة ولا الخيل ولا الإبل ولا البساتين ولا ناطحات السحاب ولا اليخوت الفارهة والسيارات المصنَّعة خصيصى لمن يطلبها.

كتب قيِّمة.

***

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾ **[سورة البينة].**

البريَّة هم الخلق.

والبريَّة أيضًا هي الأرض «القفر».

لا أملك إلا أن أجد طريقًا واصلًا بين المعنيين.

يمكن للخلق أن يكونوا كأرض قفر، يباب، لا ينبت فيها مرعى ولا ينمو فيها شجر.

ولكن يمكن أيضًا أن يكونوا كأرض تكمن فيها الخيرات والموارد، تتفجر منها العيون والواحات.

خير الخلق هم الذين يحوِّلون الأرض التي تبدو كالقفر، إلى أرض مليئة بالخيرات.

وشر الخلق هم الذين يتركونها كما هي..

أو يفعلون العكس.

العاديات: سباق المسافات الطويلة

عزيزي أنا:

حياتنا ماراثون دائم.

بعضنا يمتلك فيها دأب السلحفاة، والبعض الآخر يمتلك قفزات الأرنب.

والبعض يجمع بين الأمرين.

لكن ما هو أهم من دور السلحفاة أو الأرنب، هو وجهة هذا الماراثون وخط النهاية فيه.

نعم، فماراثون الحياة حلباته متعددة، وخطوط النهاية فيه مختلفة.

الفوز ليس في الوصول فقط إلى خط النهاية.

بل في «أي» خط نهاية.

***

التنافس جزء من طبيعة الحياة البشرية، بالتعريف.

سواء كنت مدرِكًا ذلك أو لا، فنحن جميعًا في حلبة سباق متعددة المراحل متنوعة المضامير مختلفة المضامين.

بعضنا يمشي الهوينا، كما لو أن الأمر لا يعنيه.

والبعض الآخر يهرول.

البعض يمزج بين المشي والهرولة.

والبعض يقضي حياته عدوًا.

السباق قضية حياته، كل جزء من حياته يصبح بالتدريج مرتبطًا بهذا السباق، كل طاقته منصبَّة عليه، كل علاقاته بمن حوله تصبح تدور حول حلبة هذا السباق، هل تعطِّله هذه العلاقة؟ هل تزيد من طاقته؟ هل تهدرها؟ الأجوبة هي التي ستحدد إن كانت العلاقة ستستمر أم تُستبعد من أجل السباق.

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣﴾ [سورة العاديات].

تراهم في كل مجال، دراسة أو عمل.

سعي للضروريات، أو للحصول على المزيد من الرفاهية.

من أجل عشاء الليلة لخمسة أفواه، أو قسط دراسة مستحَق.

من أجل قسط السيارة الجديدة أو إجازة في منتجع خمس نجوم.

يسهرون، يخرجون إلى وجهتهم قبل الفجر، يسعون إلى تحقيق ما يريدون طيلة النهار، يعودون وهم يحملون ظهورهم مكسورة من الكد والإرهاق.

نشاطهم يكاد يكون مصدر طاقة، يمكن أن يوقد نارًا أو يمكن أن يكون نارًا.

طاقتهم تقدح شررًا، خيرًا وبناءً.

أو شررًا، شرًّا ودمارًا.

﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥﴾ [سورة العاديات].

البعض من هؤلاء يتمكن من تحقيق نجاحات مميَّزة في مجالات تنفع الناس ونوعية حياتهم، وهذه المنجَزات والنجاحات تجمع الناس حولها وحول أصحاب هذه المنجَزات.

«فوسطن به جمعًا»، بالضبط هذا ما يحدث، يحقِّق هؤلاء في «سباقهم» منجَزًا ما، يثير حوله «الاهتمام»، ويلتف حوله الناس، بين مصفِّق أو ساخر أو ناقد أو متعلِّم... غير متفقين، لكن ملتفِّين.

يمكن لهذا الذي جمع الناس أن يكون بلا أي نفع أو أي أهمية على الإطلاق، مجرد إثارة لغبار زائل...

أو يمكن أن يكون نافعًا للبشرية جمعاء.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ **[سورة العاديات].**

الكنود هو الجحود، والأرض الكنود هي الأرض التي لا تنبت.

والإنسان يمكن أن يكون جَحودًا لنعم ربه وفضله، ويمكن أن يكون أرضًا بوارًا.

ويمكن أن يكون الاثنين معًا.

و «حب الخير» يمكن أن يكون دافعًا في رحلة السباق الجماعي، أغلب الناس يرون «الخير» في تحقيق حياة أكثر رفاهية، ويتدافعون لتحقيق ذلك وهو أمر مشروع بلا شك، لكن هذا التدافع يجعل أساليبهم أحيانًا بعيدة عن الخير قريبة من الشر.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ **[سورة العاديات].**

وهناك، هناك فقط، ستعرف نتيجة الماراثون الذي اجتزته طيلة حياتك.

القارعة: أنصِت جيدًا، هل تسمع؟

عزيزي أنا:

أحيانًا، تستطيع أن تسمع دقات قلبك.

في لحظات توتر أو قلق أو إرهاق، ستسمع قلبك وهو يدق دقاته الإيقاعية، قد يكون الأمر مزعجًا أو مقلقًا للبعض، لكنه في الغالب لا يستدعي القلق.

من الجيد أحيانًا أن تنصت لقلبك.

لكن المثير في الأمر أن قلبك يدق باستمرار. منذ أن كنت جنينًا وهو يفعل ذلك، لم يتوقف ولا مرة واحدة، ما

دمت لا تزال على قيد الحياة، رغم ذلك، فأنت نادرًا ما تسمع دقاته.

كما لو أنه يريد أن يوصِل إليك رسالة ما، عبر شيفرة مثل شيفرة مورس، يريد أن يقول لك شيئًا، يحذِّرك من خطر عظيم، لكنك لم تنصت. لم تحاول أن تنصت.

ليس قلبك وحده الذي يحاول أن يوصِل إليك رسالة، وأنت عنه لاهٍ.

لو أنصتَّ جيدًا، لسمعتَ صوت الطبول خارجًا من الصمت.

يقول لك الرسالة نفسها.

***

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ **[سورة القارعة]**.

«القارعة» هو اسم القيامة الأكثر انتشارًا من بين الأسماء الأخرى التي وردت له في جزء عمَّ (الصاخة، الطامة الكبرى، النبأ العظيم...).

والقارعة اسم موحي، أغلب المفسِّرين يشيرون إلى أنها تقرع «القلوب».

والقرع يمكن أن يكون على القلوب أو العقول أو على جدران الروح...

أو على جدران خزَّان الغفلة الذي ننسى أنفسنا فيه، أو الذي نحبس أنفسنا فيه في أحيان أخرى.

بكل الأحوال، القارعة تقرع على رؤوسنا في نداء اليقظة الأخير، الفكرة هي أن نستوعب معنى الاسم قبل أن يحل معناه حرفيًّا، لأن هذا يعني فوات الأوان.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ **[سورة القارعة].**

الفراش المبثوث هو الفراش الذي ينجذب إلى مصدر النار ويهوي فيها محترقًا مقترفًا نهايته بنفسه. الناس يوم القارعة يكونون كهذا الفراش الخارج من كل مكان وهو يحلِّق نحو حتفه، وبينما يجد العلماء أكثر من تفسير لسلوك الفراش هذا، فإن الكثير من البشر يسلكون السلوك ذاته في حياتهم كلها، يقضون أعمارهم محلِّقين نحو النار، يضبطون بوصلتهم باتجاه مصدر النار كما لو أنها الملجأ والأمان، ويمكن لهم أن يبتدعوا تبريرات ونظريات في تفسير ذلك.

نستغرب ذلك؟ لكن ذلك يحدث دومًا، وربما حدث معنا لكننا لم نربطه مع هذا الوصف، كم مرة وجدنا أنفسنا في دائرة جاذبية لما نعرف جيدًا أنه خطأ وأن

عواقبه ومآلاته ستكون سيئة. حدث ذلك ويحدث دومًا في حياة الكثيرين منا، نعرف الخطأ ونعرف كيف سينتهي الأمر ورغم ذلك نمضي في تحليقنا نحو الهاوية... تلك «الجاذبيات القاتلة» لا يُشترط أن تكون علاقات خطرة مع الشخص الخطأ، أو علاقات محرمة بالأساس، يمكن أن تكون مع مسار مهني، مع خيارات هجرة أو بقاء.

ويمكن أن تكون أسلوب حياة.

الفرق أن العواقب مع «الجاذبيات القاتلة» في العلاقات تكون أسرع في الظهور.

مع «أسلوب الحياة» قد يتأخر الأمر، وقد لا يظهر إلا بعد فوات الأوان.

***

ماذا عن العهن المنفوش؟

العهن هو الصوف الملوَّن، وعرف العرب الصوف المنفوش لأنهم كانوا يستخدمونه في تحلية ماء البحر، حيث كان يوضَع على القِدر ويغلي الماء ويتجمع بخاره في الصوف المنفوش، ومن ثم يُعصر هذا الصوف ليحصل منه على ماء صالح للشرب.

الفكرة الأساسية هنا أن الجبال بهذا التشبيه قد فقدت هيبتها وقوتها، أصبحت قابلة «للعصر».

وهناك عطش، لولاه لما استُخدم الصوف المنفوش.

وهناك نار تحت القِدر.

لعل الفراش المبثوث يحلِّق نحوها.

هو الليل والعطش إذن، والصوف المنفوش يبدو كالجبال، لكن بلا هيبة ولا قوة.

وهذا الفراش الساقط في النار يذكِّرنا بقصص كثيرة في حياتنا.

نرى الخطر، ونعرف أننا سنتألم، ورغم ذلك نهرول له.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ **[سورة القارعة].**

في النهاية المسألة مسألة أوزان لا أحجام ولا مساحات.

المساحة التي شغلناها وشغلتها منجزات حياتنا ليست مهمة. ولا مساحة الأضواء وشهادات الخبرة والشهرة التي حزناها، مهما تطاول «البنيان» الذي شيَّدناه، ففي النهاية لا المساحات ولا الأطوال هي التي ستُقاس..

بل الأوزان.

الوزن النوعي لكل ما فعلناه وبنيناه هو الذي سيُحسب.

هل كانت أعمالنا كالصوف المنفوش تأخذ حيزًا كبيرًا من

الفراغ لكنها في واقع الحال أقرب للفراغ؟ للا شيء؟ هل كانت رحلة حياتنا تحليقًا نحو النار؟

أم أننا قدمنا ما يصمد كجبل حقيقي، حتى لو لم يبدُ حجمه كذلك؟ وكانت رحلة حياتنا إلى المزيد من النور والضياء؟

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ **[سورة القارعة].**

يشبه الأمر هنا أن يكون كل هدف رحلتك في الحياة، كل ما تؤم إليه، هو الصعود إلى قمة ناطحة سحاب، لتلقي بنفسك منها فور وصولك إليها.

محض صعود مجهِد إلى الهاوية، مع سبق الإصرار والترصد.

الكوثر بمواجهة التكاثر: عن الكم والنوع

عزيزي أنا:

حياتنا المعاصرة ستقودك بلا شك إلى أن تربط السعادة بالتملُّك والاقتناء والإكثار من ذلك.

ليس الأمر جديدًا بالضبط على تاريخ البشرية، فهذا الربط يكاد يكون جزءًا من المشكلة الإنسانية منذ بدء الإنسانية (حرفيًّا)، فبعد كل شيء، لم يخرج آدم من الجنة إلا بالسقوط في فخ هذا الربط.

لكن الحضارة المعاصرة -بنهجها الرأسمالي المتطرف- قد تمادت في ذلك بلا شك، استثمرت في هذه الطبيعة البشرية لتزيد من أرباح القائمين والمسيطرين عليها، فكان أن ضخَّمت هذه الطبيعة وجعلتها شعارًا للحياة وهدفًا من أسمى أهدافها، إن لم تكن الهدف الأهم والأسمى فعليًّا. كل شيء أصبح يدور في فلك المزيد من الاقتناء والمزيد من السلع والمزيد من كل ما يمكن أن يوضَع عليه سعر، وكل هذا وذاك يجب أن يكون أكثر وأكثر لكي –ربما، وفقط ربما- تشعر بتلك السعادة.

لكن هذه الحبكة فيها مفاجأة ملتوية بالتأكيد. لن تشعر بالسعادة بسبب الإكثار من الاقتناء أو التملك إلا بشكل عابر مؤقت، على العكس، ستشعر بالحاجة إلى المزيد، والمزيد، والمزيد.

سيتحول الأمر إلى سباق مستمر، نهايته غير محدَّدة، بل تتغير باستمرار، نحو المزيد. كل كثير سيكون قليلًا بعد قليل، وستبحث عن المزيد مما هو أكثر، وسيبدو قليلًا بعد قليل، وهكذا دواليك، دوامة لا قاع لها.

يحكي محمد أسد عن قصة إسلامه حادثة ملهمة.

كان في القطار إلى برلين مع زوجته، يومها كان لا يزال اسمه ليوبولد فايس، ولاحظ على وجوه الركاب أنهم

تعساء، لم تكن وجوههم محايدة، بل كانت مكفهرة، تعيسة.

في تلك الفترة، في عشرينيات القرن العشرين، تحديدًا بعد 1924، كانت برلين تعيش أكثر عصورها ازدهارًا، يسمون تلك الفترة «العشرينيات الذهبية»، وكانت برلين قد أصبحت ثالث أكبر مدينة في العالم، وأصبحت مركزًا جاذبًا للفنون والآداب والعلوم والصناعة، كل ما يُفترَض أن يجلب السعادة –حسب الرأسمالية وكتبها المقدسة– كان متوفرًا في برلين في عشرينياتها الذهبية تلك.

لكن، في مقصورة الدرجة الأولى، في القطار المتجه إلى برلين، لاحظ ليوبولد فايس التعاسة على الوجوه، رغم الترف، رغم الفراء الذي يحيط بأعناق السيدات، رغم الساعات الثمينة في المعاصم والجواهر على الصدور.

التفت إلى زوجته وسألها عما تراه في الوجوه حولهما. قالت: وجوه تفتقر إلى السعادة.

ليلتها، وبما قد يبدو أنه محض صدفة (لكن، لا شيء بالصدفة طبعًا) وقعت عيناه على ترجمة للقرآن الكريم، تحديدًا سورة التكاثر.

في لقطة واحدة أخذته السورة إلى تلك المقصورة في القطار المتجه إلى برلين. كان التكاثر في ذروته،

ومع ذلك كان واضحًا لفايس أنه الطريق الخطأ، وأن هذا القطار متجه مباشرة إلى الجحيم.

ومقابل ذلك التكاثر، هناك أيضًا «الكوثر».

***

أقصر سورة في القرآن، تتحدث عن «الكثرة» الحقيقية، الكثرة التي تؤثر والتي تبقى، ليس بالعدد ولا بالحجم، بل بالنوعية والتأثير. الكوثر على وزن فوعل، وهو وزن نادر عند العرب، والكوثر: الخير الكثير. بعض التفاسير تقول إنه نهر في الجنة، وحوض النبي -عليه الصلاة والسلام- في الجنة. وقال سعيد بن جبير: أكثر الله له من الخير، نهر وغيره.

والعرب سموا الغبار إذا كثر وثار وانتشر: الكوثر.

يمكن دمج المشهدين: الغبار يثور وينتشر في الصحراء، والخير يتكاثر ويتوالد وينتشر.

تقول السورة إذن، أقصر سورة في القرآن، للرسول -عليه الصلاة والسلام- إن الله أعطاه الخير الكثير المنتشر، لكن مفهوم «الخير» هنا مختلف عن مفاهيم «الخير» عند قريش، كان الأمر عندهم يتضمن أن يكون للرجل ذكور من صلبه، لكي يبقى ذكره، (لا يزال هذا مستمرًّا)، وكان مبغضو دعوة الرسول -عليه الصلاة

والسلام- يعايرونه بعدم بقاء أولاده الذكور أحياء، بأنه لن يبقى له ذِكر. ولعل كان ذلك بعد وفاة أصغر أولاده عليه الصلاة والسلام، عبد الله، الذي وُلد بعد البعثة وتوفي في بدايتها، ولعل السيدة خديجة كانت قد بلغت من العمر ما يجعل إنجابها صعبًا، وهذا شجع مبغضي الرسول على أن يعايروه بهذا دون أدنى اعتبار لمشاعر الأب الذي ودَّع طفله.

السورة تواسي الرسول، لا بالخير الكثير «البديل» فحسب، بل بأن هذا المبغِض هو الذي سيزول أثره، لسنا متأكدين الآن من اسم هذا المبغِض الأبتر، هناك أكثر من اسم مقترَح، كلهم مجاهيل إلا بالنسبة إلى من يعرف دقائق السيرة، ليس هذا فقط، كل هؤلاء ماتوا كفارًا، وأولادهم لم يعودوا «يفتخرون» بآبائهم، بل بدؤوا بصفحة جديدة، وكل ما سبق صار «جاهلية».

بعد سورة الكوثر مباشرة نزلت التكاثر..

السورتان تستندان على صيغة من صيغ الفعل «كثُر».

صدفة؟ حاشا لله.

سورة الكوثر تحدثت عن «الخير الكثير»، عن المفهوم البديل.

التكاثر تحدِّثنا عن «الكثرة» الأخرى، الكثرة «الفارغة»، الكثرة التي تواجهها الكوثر.

«ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر». كانت قريش –في موقع مكة التجاري– تعيش على تجارتها، وكانت حرب الفرس والروم قد زادت من هذه المكانة، وجاءت معاهدات الإيلاف لتزيد من تراكم الثروات وتكاثرها.

التكاثر في الأموال، الأولاد، العبيد... هكذا كانت مقاييس قريش.

كانت؟

بل لا تزال المقاييس قائمة، وعلى نحو أكبر وأكثر هيمنة، الأموال، العقارات، السيارات، الشهادات، المعجبون، اللايكات، المعارف... كل ما نحاول رصه في الـ (cv). كل ما لقنتنا الحياة المعاصرة أن نعتبره مقياسًا للسعادة والنجاح.

هل هذه الأشياء بحد ذاتها سلبية؟ ليس بالضرورة. مشكلة هذه الأشياء عندما تلهيك عن أهدافك الحقيقية. عندما تصبح هي الأهداف. عندما تصبح الملهاة واقعك وحقيقتك.

فلنتذكر هنا أن الرحلة إلى المقابر-بأكفان بلا جيوب- مجرد زيارة عابرة. لاحقًا هناك تحقيق، وأسئلة عما كثرناه في حياتنا الدنيا.

هل كان ضمن الكوثر؟ أم التكاثر؟

الفيل وقريش: عن الفيل في التفاصيل

عزيزي أنا:

قد ترسم لمستقبلك خطة واضحة المعالم، وتعمل على تنفيذها بنجاح في أغلب تفاصيلها، ويبدو لك أنك تكاد تصل إلى أهدافك، أو على الأقل يمكنك أن تعتقد أن خطتك تسير على ما يرام.

كل شيء حسب الخطة المرسومة التي أنفقتَ عمرك على تحقيقها.

لكن خطتك غالبًا كانت تتعامل مع ظروفك كما لو كانت في أنبوبة مفرغة من الهواء، معزولة عن أي تأثير خارجي.

وفجأة يأتي خبر عاجل، حدث يبدأ محليًّا –في بلدك أو بلد مجاور– ثم سرعان ما يكبر ليؤثر على كامل المنطقة والبلدان المجاورة، وربما يصل بتأثيره إلى ما هو أبعد.

وفجأة تجد خطتك الواقع وقد تغير، ربما تضطر إلى أن تغادر بلدك، وربما بلدك نفسه قد تغير.

حتى خططك البديلة لم تضع ذلك في الحسبان، لا أحد يضع خططًا شخصية لمستقبله وهو يحسب أن حربًا ما ستقع لتكون جزءًا من معطيات الواقع.

سترتبك خططك بالتأكيد، كما ستفعل حياتك كلها.

ولو نظرت إلى ما حدث بعد عقود، لربما فكرت أن ذلك حدث لخير.

رغم كل شيء.

***

عندما تكون داخل «الحدث» لا يمكنك فهمه وإدراكه تمامًا، تحتاج إلى مرور بعض من الوقت لمزيد من الفهم الكامل، وبخاصة مع «عواقب» هذا الحدث ونتائجه على المدى البعيد.

وكلما كان الحدث كبيرًا، مرتبطًا بأحداث متشعبة ومتداخلة، احتجت إلى مزيد من الوقت لفهمه حقًّا، يمكننا أن نقول عن حدث ما إنه سيغيِّر التاريخ، وربما نتوقع بعض النتائج، لكن الصورة الكبيرة لن تُفهم إلا لاحقًا.

هكذا تنزلت سورتا الفيل والإيلاف، لتلفت انتباه الناس يومها إلى أحداث مرت عليها مدة طويلة، لكن ربما لا يمكن فهمها إلا بعد مرور هذا الوقت.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ [سورة الفيل].

كانت واقعة الفيل قد وقعت قبل أكثر من 40 عامًا من نزول السورة.

والواقعة كانت حدثًا كبيرًا مهمًّا بالنسبة إلى أهل مكة والعرب عمومًا دون شك، بل إنهم أرَّخوا لأحداثهم بها، وهذا طبيعي، فالغزو كان نادرًا وغير مسبوق، ونتائجه كانت أيضًا غير متوقَّعة.

لكن هل كان الناس الذين عاشوا الحدث يتخيلون كيف أن العواقب والنتائج ستغيِّر العالم بالتدريج؟

انهيار جيش أبرهة في مكة شجع الفرس على الهجوم على اليمن واحتلالها مجددًا وطرد الأحباش منها، وهو

ما عدَّه البيزنطيون نقضًا لمعاهدة الأعوام الخمسين، بالإضافة إلى أحداث أخرى متفرقة.

كان ذلك مؤشرًا باندلاع حرب دامت قرابة عشرين عامًا بين الإمبراطوريتين بين 572 و591 ميلادية، أي بعد سنة واحدة فقط من عام الفيل.

وقد مهدت هذه الحرب لحرب أخرى لاحقة، ستنهك الطرفين على نحو يسهِّل لقوة جديدة ثالثة أن تكسرهما معًا.

كل هذه الأحداث –متسلسلة ومتداخلة– كانت أكبر بكثير من «الحدث الأصلي» على أهميته.

وهنا تأتي السورة لتبني الوعي: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟).

فعلُ ربك هنا لا يمكن حصره على الواقعة المنفردة وتفاصيلها، بل في كل «نتائجها» التي ما كان يمكن فهمها فورًا (بل ولا يمكن فهمها كاملة إلا بعد أن هُزمت الإمبراطوريتان الساسانية والبيزنطية على أيدي المسلمين، أي بعد قرابة خمسة وعشرين عامًا من نزول السورة، لأن ما «فعله ربك» كان لا يزال يتمدد وينتشر، ويسقِط قطع دومينو أخرى وأخرى).

ألم يجعل كيدهم في تضليل؟ جاء أبرهة ليتوسع، فكانت النتيجة ليست هزيمته فحسب، بل هزيمة حلفائه وأعدائه.

كم مرة نقول «انقلب السحر على الساحر» على أحداث تاريخية! كم مرة نقول إن حماقات «فردية» نهمة للتوسع كانت وبالًا على أصحابها وأهلهم وبلادهم! هل نحتاج إلى أمثلة (معاصرة) أم الإشارة تكفي؟

طيور أبابيل، حجارة من سجيل، عصف مأكول، ووباء الجدري لاحقًا يفتك بالبقية الباقية بعد كل هذا. ربما يكون نتيجة لحجارة السجِّيل أو من نتائجها. التفاصيل قد لا تكون مهمة كثيرًا هنا، المهم أن نفهم «فعل الله».

***

ماذا عن سورة قريش؟

ترتبط السورتان مع بعضهما، بل إن بعض الأقوال تقول إنهما سورة واحدة. وكثير من المفسرين جعلوا من بداية سورة (لإيلاف قريش) جوابًا لخاتمة سورة الفيل (فجعلهم كعصف مأكول).

ما هي الإيلاف؟ هي باختصار معاهدات تجارية كان هاشم بن عبد مناف بن قصي (الجد الثاني للرسول -عليه الصلاة والسلام-) قد رتبها مع القبائل التي تمر

القوافل التجارية في مناطقها، وذلك مقابل نسبة من أرباح هذه القوافل، وكانت هذه الاتفاقيات تضمن سلامة القوافل بحيث لا تكون متأثرة بالحروب بين الحميريين والأحباش جنوب الجزيرة، أو حروب الوكالة بين الساسانيين والبيزنطيين في شمال الجزيرة، ولا بقطع القوافل من قبل قطاع الطرق.

بداية الإيلاف كانت في أواخر القرن الخامس الميلادي، لكن نتائجها وآثارها الإيجابية لم تظهر فور عقد أولى الاتفاقيات، بل بانضمام مزيد من القبائل بالتدريج، وربما أهمية الإيلاف على مركز مكة التجاري لم تظهر إلا بعد عقود.

هنا يأتي الربط الجوهري بين السورتين، الإيلاف هي السبب في تحول مكة إلى مركز اقتصادي تجاري مهم في الجزيرة العربية إضافة إلى المركز الديني الذي يمثِّله وجود الكعبة، وربما كان ذلك كله من الأسباب الخفية لرغبة أبرهة بهدم الكعبة، أن يزيح مركزًا اقتصاديًّا مهمًّا قد يتحول إلى مركز قوة في أي وقت.

هكذا تتدافع الأحداث، اتفاقات ومعاهدات تهدف إلى تحقيق الأمن الاقتصادي والأمان الاجتماعي تؤدي إلى غزو ويقود الغزو إلى حروب لاحقة تستمر لعقود تنهك

إمبراطوريتين ويقود هذا الإنهاك إلى فتح طريق لقوة صاعدة.

بكل الأحوال: «الإيلاف» جلبت الأمن والرخاء لمكة. من عقَدها؟ هاشم وإخوته، قريش عمومًا.

نعم، لكن بعد مدة، عندما تنظر من بعيد إلى الأحداث، ترى مجددًا «فعل الله»، ترى لمحة من الخطة، الصورة الكبيرة، بعض ما يحدث من اتفاقات أو معاهدات نمر مرور الكرام عليها في عناوين الأنباء، لكن بعد سنوات سنرى نتائجها قد تدخلت في حياتنا الشخصية، وتصير جزءًا من مناقشات كل بيت وكل أسرة، سلبًا أو إيجابًا.

رحلة الشتاء والصيف لقريش هي مثل بحثك المستمر عن الأمن والأمان، الشبع والكرامة. خلال ذلك قد تعقد معاهدات أو تستخدم ما هو موجود من قوانين، أو تساهم في سن قوانين جديدة.

كل أفعالنا البشرية، تصب في الصورة الكبيرة.

كل خططك للمستقبل تصب داخلك وتتفاعل مع خطط أكبر منك بكثير، خطط لا تعرف عنها شيئًا ولا أحد يعرف عنها شيئًا مسبقًا، بل هي تحدث فحسب، تسقط قطعة دومينو أولى ويتوالى سقوط القطع على نحو غير متوقَّع.

بين هذا وذاك، تتغير خططك الشخصية.

وربما تجد نفسك في النهاية، في موضع أفضل.

رغم كل شيء.

النصر: دعاء ليلة الامتحان

عزيزي أنا:

أحيانًا قد يكون تحضيرك لامتحان ما غير كافٍ.

لم تطَّلع على المادة إلا ليلة الامتحان مثلًا.

أو انشغلتَ بملهيات تحاصرك وتتربص بك.

أو أي ظرف آخر، ربما قاهر فعلًا، وخارج عن إرادتك.

غالبًا سيكون دعاؤك ليلة الامتحان أن تحدث «معجزة» ما، ربما أن تكون الأسئلة سهلة جدًّا بحيث لا تحتاج إلى تحضير، أو أن تأتي من ضمن المادة التي قرأتها فحسب،

أو أن يأتيك «مدد» ما، ربما بإلهام، أو مساعدة من صديق، رغم أن ذلك غش محرم بلا شك.

بنسبة إحصائية مهمَلة، قد يحدث شيء كهذا. وسواء كان ذلك استجابة لدعائك أو لأسباب أخرى، فإنك تعرف قطعًا أن هذا أمر لا يمكن أخذه على محمل التكرار، وأن الأصل هو أن يكون استعدادك الكافي هو السبب في نجاحك أو حصولك على علامة جيدة.

«دعاء ليلة الامتحان» مفهوم تمامًا في سياق سن الطلبة وعدم وصولهم إلى النضوج الكافي.

بل هو مفهوم أيضًا حتى مع الأكبر سنًّا، الأنضج، في سياق الاضطرار الطارئ.

لكن أنت تعلم أن هذا لا يمكن أن يكون القاعدة التي تعتمد عليها في حياتك ومواجهاتك ومعاركك وقضاياك.

أنت تعلم تمامًا أن النصر لا يأتي بدعاء كهذا..

بل بجملة أسباب متداخلة وعوامل متعددة وجهود متراكمة، يتوِّجها دعاء مناسب لكل ما سبق.

لا تدع أحدًا يقول لك: إنما النصر صبر ساعة.

صبر الساعة مهم، لكن صبر الساعات السابقة، وربما السنوات السابقة، أكثر أهمية.

***

سورة النصر هي من أقصر سور القرآن الكريم، وهي لذلك من أسهل السور حفظًا، ولعلها من أكثر السور التي نقرؤها في الصلاة بسبب ذلك!

كما أنها من أواخر ما أُنزل من كلام الله، (تسلسلها 102 من أصل 114).

الطريق إلى «سورة» النصر في القرآن الكريم، يمر بطبيعة الحال بطوال السور، وبالسور المتوسطة، وحتى بقصار السور، فهي في الجزء الأخير من القرآن.

الحكمة في ذلك واضحة.

الدرب إلى النصر، يجب أن يمر بكل ذلك، بكل ما في القرآن، بكل ما فيه من أوامر وحدود وفروض.

سورة النصر، سهلة؟

تبدو كذلك فقط، لكي يبقى النصر لامعًا جاذبًا في أذهاننا.

الثمرة تكون سهلة المنال وقت الحصاد فقط، بعض الثمار تسقط فور النضوج، لكن الدرب إلى تلك النقطة، ليس سهلًا البتة.

الوصول إلى النصر، إلى ثمرته الحاسمة، أمر أصعب بكثير من مجرد القطاف..

من مجرد حفظ وتلاوة السورة التي تحمل اسم النصر.

بل هي النتيجة النهائية للتراكم الذي سبق السورة، والذي أوصل إليها.

كل سور القرآن مجتمعة تقود إلى سورة النصر.

للأسف الشديد..

ليس ثمة طريق مختصر...

ليس ثمة طريق «مقتطع»...

السورة قصيرة، سهلة، فبيان النصر الختامي قصير...

لكن الدرب إليه طويل، وكثيرًا ما يكون مليئًا بالمطبات.

***

ستبقى السورة من أكثر السور التي نقرؤها في الصلاة.

لا بأس..

فلنتذكر فقط عندما نقرؤها...

أن أمر النصر ليس بهذه السهولة...

***

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ **[سورة النصر]**.

جاء؟

هل يأتي نصر الله فننتظره واقفين؟ أم نذهب إليه نحن يا ترى؟

النصر يأتي، على موعده، لكن موعده هذا لا يتحدد سابقًا أبدًا، بل يتحدد بقدر ما يتحقق ويجب أن نذهب إليه هناك، في نهاية الطريق، الطريق صعب ووعر، يمر بمراحل كثيرة، ومعوِّقات أكثر، يتطلب غالبًا أن نتغير من الداخل، أن نغيِّر الخطط، أن نراجع أنفسنا. الطريق – بهذا المعنى- جزء من النصر، من الوصول إلى النقطة التي سنلقاه فينا.

السورة تقول لنا أيضًا إن «دخول الناس أفواجًا» سيكون جزءًا من المشهد التالي للنصر والفتح. أفواج الناس هذه عمومًا تنضم إلى المنتصر، لا نحكم عليهم هنا بشيء. الأمر ليس لنا، لكنها طبيعة «بشرية» عند كثيرين. النسبة الغالبة من الناس ستصفق للمنتصِر، ونسبة قليلة فقط هي التي تحدد موقفها بمعزل عن رؤية النتائج النهائية...

الأمر الذي تقوله لنا السورة هنا، إن تحقيق نموذج النصر والفتح هو الذي سيجعل الناس تدخل أفواجًا، وليس عكس ما يفعله كثيرون: يعدون بنموذج النصر، ليكسبوا «دخول الناس أفواجًا».

***

في كل معاركك الشخصية وتجاربك الحياتية، تذكَّر ألَّا تسمي انتصاراتك الثانوية «نصرًا»..

«النصر» يكون عند نهاية الطريق فحسب.

لست بحاجة إلى أفواج الناس لتؤكد لك أنك على صواب في بداية الطريق، وإذا كان طريقك مختلفًا، فغالبًا سيكونون ضدك، ويتفننون في تحطيم كل مجاذيفك.

في النهاية سيأتون ويقولون لك فيما معناه: كنا نعرف أنك ستفوز منذ البداية. وقد يقسِمون على ذلك.

لا تتعجب، هذه طبيعة بشرية، وغالبًا ستكون قد خبرتها عندما تصل إلى النهاية.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [سورة النصر].

سبحان الله وبحمده، استغفره.

المسد: عن العُقد النفسية التي تقود إلى الهاوية

عزيزي أنا:

كلنا معرَّضون للإصابة بعُقد أو اضطرابات نفسية.

البعض منا معرَّض أكثر من سواه، بحساسيات معينة يرثها وتجعله عرضة أكثر من سواه، حادث طفولة مؤلم يمر على أطفال عائلة واحدة، لكن كلًّا منهم يتعامل معه على نحو مختلف، البعض قد لا يؤثر فيهم كثيرًا، والبعض يحمله جرحًا غائرًا في أعماقه.

تكبر العقدة أو تصغر بحسب ظروف أخرى لاحقة، ولأن الحياة صعبة وقاسية، فإن هذا البعض الذي حمل الجرح الغائر قد يكبر ليحمل اضطرابًا كبيرًا.

هذا كله مفهوم، وهو جزء من الامتحان الذي يختلف في طبيعته من شخص إلى آخر، وهو امتحان أؤمن أن كلًّا منا يحاسَب لاحقًا بحسب أسئلته الخاصة به. لكل «امتحان» خاص، ظروفه الخاصة، وطريقة حسابه الخاصة، يعلمها ويقدِّرها العزيز العليم.

مهما كانت العقدة مؤلمة، أو الاضطراب عميقًا.

عليك أن تتعامل معها على أنها «تفسِّر» ما يحدث معك، لكنها لا «تبرِّره».

لا تتخذ من مشكلاتك النفسية عذرًا لسلوكك الخاطئ أو تبريرًا لمعاصيك وذنوبك.

اتخذها وسيلة للفهم، هذا قد يساعدك على الخروج منها.

إنها تفسِّر، لكنها لا تبرِّر.

والفرق كبير.

***

ثمة مثال قرآني كبير على شخص محدَّد قادته مشكلاته النفسية إلى الهاوية، ولم يكن ذلك عذرًا له بأي

حال من الأحوال. كان عليه أن يقف ليواجه مشكلاته، كان عليه أن يتصارع مع عُقده، كان عليه أن يخرج عن تحكم العُقدة فيه.

***

من بين كل الشخصيات التي عادت الرسول -عليه الصلاة والسلام-، يقف أبو لهب كالشخص الوحيد الذي ذكره القرآن بالاسم، وبسبب قصر السورة وسهولة حفظها، فهي من أكثر السور تكرارًا في الصلاة، وهذا يجعل من أبي لهب «حاضرًا» بكثافة سلبية في أذهاننا.

ما الذي فعله أبو لهب أكثر من بقية أعداء الرسول -عليه الصلاة والسلام- حتى يدخل التاريخ كواحد من أهم رموز الشر والكفر؟

مبدئيًّا، كونه «عم الرسول» كان نقطة مهمة في استحقاقه لهذه المكانة، لا مجاملات في هذا الأمر. علاقة القرابة لم «تلطِّف» مكانة أبي لهب وموقفه، ولم تغض النظر عنها أو تتجاوزها. الأمر مهم حتى اليوم، وكان مهمًّا أكثر في ذلك الزمان، لم يكن موقف أبي لهب موقف أي كافر عادي من كفار قريش، بل كان عدائيًّا سفيهًا في عداوته، لم يتورع عن السباب العلني للرسول الكريم في محافل قريش، وهذا شجَّع آخرين -من عشائر أخرى-

على المضي في ذلك، إذا كان عمه لم يسنده ويتحدث عنه هكذا، فما الذي يمنعنا نحن؟

قائمة مواقف أبي لهب من الرسول -عليه الصلاة والسلام- لا تقف عند موقفه الشهير يوم قال للرسول «ألهذا جمعتنا؟ تبًّا لك!»، بل تتعدى ذلك إلى تطليق بنتَي الرسول رقية وأم كلثوم من ابنَيه عتبة وعتيبة، ونمِّ زوجته أم جميل بنت حرب (أخت أبي سفيان بن حرب) وحمل حطب الوقيعة ضد الرسول، وهجائه وتسميته «مذمم».

وعندما كان الرسول -عليه الصلاة والسلام- يقابل وفود العرب لدعوتهم كان أبو لهب يسير خلفه ليسيء له ويقول لهم: لا يَصُدَّنَّكُم هَذا عَن دِينِ آلِهَتِكُم أو إنَّه صابِئٌ كاذِبٌ. وعندما يأتي هذا الكلام من عمه، فالأمر بالنسبة إلى العرب كما لو كان رفضًا وطعنًا من أقرب الناس له. المنطق السائد كان يفترض أنه لو كان صادقًا لكان قومه وعمه أول من صدَّق وآمن به.

لكن موقفه الأكثر إثارة للتعجب هو موقفه من حصار قريش لبني هاشم وبني المطلب، قريش حاصرت مؤمنهم وكافرهم، الاستثناء الوحيد من الحصار كان أبا لهب لشدة عداوته للنبي -عليه الصلاة والسلام- فكان أبو لهب يحرص على ألَّا يدخل الطعام إلى قومه، وعندما كانت قوافل العرب تأتي في موسم الحج، كان أبو لهب

يشتري الطعام منهم بأسعار مضاعَفة كي لا يتمكن المحاصَرون من شرائها.

كان يمكنه ألَّا يفعل شيئًا أمام الحصار، يترك قريش تنفِّذه، لكنه كان يحرص على المزيد من الأذى لقومه.

هذه السفالة لا يمكن أن تصدر عن مجرد موقف «رافض» للدين الجديد، أو حتى عداء للنبي -عليه الصلاة والسلام-.

هناك شيء ما في نفسية هذا الشخص، هناك عُقدة ما في دواخله، جعلته يأخذ هذا الموقف، وبالتالي يستحق هذا الموضع الذي أسكنتْه فيه السورة.

ممكن أن يفسَّر هذا بسيطرة زوجته أم جميل أروى بنت حرب بنت أمية عليه، وهذا وارد طبعًا. أم جميل كانت أخت أبي سفيان سيد بني عبد شمس، لذا فدعوة الإسلام قد تفسَّر من قِبلها بكونها جزءًا من التنافس على الزعامة بين بني عبد شمس وبني هاشم، وهي منحازة لبني عبد شمس دون أي تحفُّظ ودون اكتراث لزوجها الهاشمي وأولادها الهاشميين.

حسنًا، ممكن أن يكون أبو لهب ضعيفًا أمام زوجته وأن تكون زوجته متسلطة وظالمة.

هذا سيفسِّر موقفه المعادي للرسول والرافض له، لكنه لن يفسِّر مزايداته في ذلك ومغالاته في العداء والتخلي عن كل قومه.

ثمة شيء أشد تعقيدًا في أبي لهب، ربما بدأ قبل كل هذا بفترة طويلة.

***

قبل أن يسود عبد المطلب على مكة، حدث نزاع بينه وبين أعمامه من بني نوفل على بعض الساحات التي كان يملكها، ونصرت قريش بني نوفل ضده، وهذا جعل عبد المطلب يتحالف مع قبيلة خزاعة ضد كل قريش.

ولأن قبيلة خزاعة كانت كبيرة، فقد رضخت قريش لعبد المطلب وكان الحِلف تكريسًا لسيادته على قريش..

ويوم الحِلف، وتأكيدًا لمعانيه، تزوج عبد المطلب بابنتَي سيدين من سادة خزاعة، واحدة منهما هي لبنى بنت هاجر بن ضاطر، التي ولدت له ابنه عبد العزى..

الشهير بأبي لهب.

***

وُلد أبو لهب نتيجة لحلف أبيه مع خزاعة ضد كل قريش، لم يستطع على ما يبدو أن يتخلص من هذا.

لم يستطع أن يتخلص من فكرة أن قريش تفكر فيه باعتباره تذكارًا لحلف عبد المطلب مع خزاعة ضدها. لم يستطع على ما يبدو التخلص من فكرة أنه كان ذكرى لانتصار أبيه على قريش، وإذلاله لهم.

عاش حياته كلها ليثبت لقريش العكس، ليثبت إخلاصه لها.

وعندما جاء محمد -عليه الصلاة والسلام- بدعوته، كانت الفرصة له لكي يثبت ذلك.

وقف ضده، وجَّه له الإهانة علنًا، أجبر ابنيه على طلاق ابنتَي محمد. بالغ في عدائه كما لو كان يقول لقريش: أترون؟ أنا معكم. أنا لست معهم.

وتخلى عن كل عشيرته وهم في الحصار، جالبًا لنفسه عار نقص النخوة والرجولة بين العرب.

وزايد في السعر على لقمة تدخل إلى عشيرته...

أبو لهب كانت لديه عُقدة نفسية عميقة تجاه نظرته لنفسه، وهي عُقدة استسلم لها حتى انتهت به إلى الدرك الأسفل الذي وضعتْه فيه السورة.

على الأقل هذا ما يبدو من تحليل الموقف[1].

***

(1) للمزيد عن هذا، «السيرة مستمرة» للمؤلف، عن دار عصير الكتب.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ [سورة المسد].

لم يكن أبو لهب وحده الذي أودت به عُقدته إلى الهاوية.

زوجته، حمالة الحطب، كانت تحمل في أعماقها أيضًا عُقدة ما، التسلط؟ النرجسية؟ حب الظهور؟ ما فعلتْه مع زوجها –ومساهمتها في إبعاده عن عشيرته– يفضح سلوكًا نرجسيًّا مسمومًا بامتياز.

حوَّلت عُقدتها إلى وسيلة لتحريك عُقد النقص والضعف عند زوجها، وعبَّدت بذلك طريقهما معًا إلى هاوية الدرك الأسفل.

لو أن زوجة أبي لهب كانت مختلفة، لربما ساعدته على أن يواجه عُقدته بطريقة مختلفة.

ذاك اللهب، يحتاج إلى من يحمل الحطب لكي يبقيه متقدًا مشتعلًا.

وتعبير «حمالة الحطب» معجِز بالتأكيد.

نراهم في كل مكان وزمان، حمَّالي وحمَّالات الحطب، رجالًا أو نساء، يحرِّكون النار ويبقونها مشتعلة، وقودهم عُقد الآخرين، وحطبهم كلمات وأفعال تستغل هذه العُقد.

من أعناقهم تتدلى السلاسل، تربطهم بمن استسلم لهم، وتأخذهم إلى دار حقهم.

***

أخطر الأعداء هو هذا القريب الذي يتحرك عداؤه من شعور النقص والرغبة في إرضاء الآخرين، التنافس مفهوم، التمسك بالقديم مفهوم، رفض فكرة جديدة مفهوم حتى لو كانت واضحة وضوح الشمس.

لكن عندما يكون الرفض والعداء ناتجًا عن مشاعر ترفض فيها نفسك أصلًا، فالأمر لا يمكن أن يقابَل إلا بحسم قاطع.

تبت يدا أبي لهب وتب!

***

يا عزيزي أنا:

ربما العدو الأخطر من ذلك (القريب صاحب العُقدة) هو أنت، لو كان تعاملك مع مشكلاتك وعُقدك على أنها حجر الزاوية في دوافعك وسلوكياتك.

يمكنك أن تكون أخطر أعدائك لو تعاملك مع مشكلاتك كان على أنها مبرِّر لما تفعل.

عُقدة نقص أبي لهب قد تكون أي عُقدة أخرى أُصبت بها أنت في خضم نشأتك.

افهمها، واجهها. لستَ ضحية، أنت شخص امتحانه في هذا.

إياك أن تعتقد أن عُقدتك تلك تبرِّر لك أخطاءك.

إياك!

الكافرون والإخلاص والفلق والناس: ما يجب أن يقال

أربع سور من قصار السور، كلها تمتلك مكانة مميزة مترابطة مع بعضها بعضًا، وتشترك معًا في أنها كلها تبتدئ بـ «قل»، وهي السور الوحيدة التي تبتدئ بهذا.

والمخاطَب بطبيعة الحال هو الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

ولأننا نحمل الآيات كما هي، فإن الـ «قل» تتحول إلى أن تكون موجَّهة لنا أيضًا.

وهذا يربطنا به عليه الصلاة والسلام برابطة خاصة.

هذه الآيات كانت تخاطبه، وتخاطبنا أيضًا.

في المكانة لا مجال للمقارنة مع سيد ولد آدم، مع خير البشر.

ورغم ذلك، فإن هذه الرابطة تضعنا معه في الخطاب، ترفعنا إلى مستوى أعلى، نحن بكل أخطائنا ومعاصينا وكبائرنا وهزائمنا -أمام أنفسنا قبل أي أحد- نرتفع بمجرد أن نكون في خطاب واحد معه.

نشعر أننا أفضل، على الأقل نشعر أننا يمكننا أن نكون أفضل.

لكلٍّ من هذه السور الأربع مكانة خاصة، الكافرون تعدل ربع القرآن[1]، والإخلاص تعدل ثلثه[2]، وكان عليه الصلاة والسلام يصلي بهما معًا ركعتَي السُّنة قبل الفجر وبعد المغرب.[3]

أما المعوذتان (الفلق والناس) فقد صحَّ عنه أنه أمر بقراءتهما عقب كل صلاة، وكانتا رفيقتيه عليه الصلاة والسلام عند المرض،[4] وكانتا تصاحبانه (ومعهما الإخلاص) إذا أوى إلى فراشه، يجمع كفيه وينفث فيهما

(1) سنن الترمذي 2894

(2) صحيح البخاري 5013

(3) سنن النسائي 992، صحيح مسلم 726

(4) صحيح البخاري 5061

هذه السور الثلاث، ثم يمسح بهما على جسده من رأسه إلى كل ما تصل إليه يداه من جسده الشريف.[1]

تخيلوا تلك الآيات، تتحول إلى أنفاس من أنفاسه الشريفة وهو ينفثها في كفيه، ثم تتحول إلى لمسات تجول في جسده، ثم تنام معه عليه أفضل الصلاة والسلام.

تلك السور الأربع، وخصوصًا الإخلاص والفلق والناس، تحولت لتكون حرز الأمة المفضَّل وحِصنها الأكثر حصانة، سكنت دعاء الأمهات والجدَّات، صارت جزءًا من ذاكرة ملايين الأطفال بينما أمهاتهم أو خالاتهم يرقونهم، تحولت لتكون معوذات للعقل الجمعي برمته.

لكن هناك ما هو أكثر من ذلك في هذه السور.

هذه السور التي تبدأ بـ «قل»، تحتوي على ما يجب أن يُقال، ما يجب أن يكون جزءًا من أذهاننا ومفاهيمنا ونحن نواجه الحياة، ما يجب أن نقوله دومًا لأنفسنا ولكل الآخرين من حولنا.

هذه السور الأربع تشكِّل أربعة أركان لا غنى عنها في مواجهاتنا لحياتنا.

كلٌّ منها يقول شيئًا مختلفًا، شيئًا يجب أن يُقال.

(1) صحيح البخاري 5017

الكافرون: خطوط حمراء تحتاج إليها لنجاتك

عزيزي أنا:

في عالم متداخل شديد التعقيد، سيكون عليك أن تعرف أين تنتهي حدودك وأين تبدأ حدود الآخرين، أين يمكن أن تكون هناك مناطق مشتركة، وأين يجب أن تكون هذه المنطقة لك وحدك، أين هي المناطق «المحظورة» التي يجب ألَّا يتجاوزها أحد، وأين هي المناطق التي يمكن أن تقبل مرورهم فيها.

هذه الحدود لا تعني وجود حرب بينك وبين الآخرين، لكن أحيانًا وجود الحدود -واحترامها- هو ما يمنع الحرب من الوقوع.

حتى في علاقاتك الشخصية، وجود «حدود» ما، هو ما يتيح لهذه العلاقات، حتى مع أقربها، أن تكون علاقات صحية للطرفين، بل لكل الأطراف المحيطة بالعلاقة.

الأمر أصعب وأدق مع الأفكار، فهي تتسلل أحيانًا بخفة ودون ضجيج، قد تغفل عنها قليلًا فإذا بها قد اقتحمتك ووصلت إلى مساحات كان يجب أن تقف بعيدة عنها، ودون أن تنتبه: تمكَّنتْ منك.

لذا، يا عزيزي أنا، عليك أن تعرف كيف تضع حدودًا وخطوطًا حمراء لتحميك.

لا تضعها في كل مكان، فهذا يضعِفها ويقلِّل من أهميتها وتأثيرها على المدى البعيد.

ضعها حيث يجب أن تكون.

***

عندما نزلت هذه السورة في مكة، لم يكن «الكافرون» يعرفون بعد أنهم «كافرون».

بعبارة أخرى لم يكن هذا التصنيف –وكل تبعاته اللاحقة– قد أصبح معروفًا كما هو اليوم.

ليس هذا فقط، في هذا السياق، كان الكافرون أغلبية لها السيطرة والهيمنة على المجتمع، وكان المؤمنون أقلية، وبعض أفراد هذه الأقلية كان يتعرض للأذى.

إذن لم تكن الكلمة تحمل المعاني التي تُفهم اليوم، بل كانت محض توصيف لموقف من الوحي.

كان هناك من صدَّق بما جاء به الرسول –عليه الصلاة والسلام–، وكان هناك من لم يصدِّق. الفئة الأولى هي المؤمنة، والفئة الثانية هي الكافرة.

كلمة الكفر كانت قد وردت بالفعل في سور قبل سورة «الكافرون»، لكنها كانت قد وردت بصيغة الفعل «كفَرَ»، كما في آية: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ

﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ [سورة المزمل]. لكن بصيغة «الاسم» وبأسلوب النداء، كانت هذه أول مرة.

نزلت السورة، في مرحلة مبكرة، لتضع خطوطًا حمراء فاصلة، لتحدِّد تصنيفًا كان قيد التكوين آنذاك.

هنا، تحول الكفر إلى صفة، لم يعد فعلًا عابرًا، أصبح مشركو مكة لهم اسم آخر، أصبحوا «كافرين».

مشركو مكة كانوا يعرفون معنى الكفر في لغتهم. الأصل في الكلمة: التغطية والإخفاء، ومنه يتدرج المعنى إلى الرفض والجحود. كان رفض دعوته عليه الصلاة والسلام كفرًا وجحودًا بما لا يمكن لعاقل أن ينكره من أحقية الله بالعبادة وحده دون أوثان قريش وأصنامها.

لكن السورة لم تنزل فقط لتضع «تسمية» للكافرين، بل ستضع أيضًا تلك الحدود الفاصلة بين الكافرين والمؤمنين. قد تبدو لك الحدود مكرَّرة ومربِكة قليلًا، لكن بقليل من التدقيق، سنكتشف أنها تنتقل من معنى إلى آخر دون تكرار.

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾ [سورة الكافرون].

النفي الأول يستخدم صيغة الفعل المضارع، والمضارع يفيد الحال والاستقبال، أي إنه ينفي عن الآن، وعن غدًا، وعن «الأبد»... أن يعبد ما يعبده «كفار مكة»، أو الأوثان بشكل عام.

والنفي الثاني يخص كفار مكة: يستخدم في الإشارة لهم لفظ «عابدون»، وليس فعل «تعبدون»، لأن الفعل متحرك، والاسم ثابت، فإذا استخدم الفعل المضارع معهم، أشار إلى المستقبل أيضًا، وهذا قد يتغير. قد يؤمنون لاحقًا، ويعبدون ما يعبد، لذا هو ينفي عنهم وضعهم الثابت حاليًّا فقط.

النفي الثالث: يعود به إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام- مجددًا. ولا أنا عابد ما عبدتم. هذه المرة يستخدم (الاسم) له، والفعل الماضي لهم. الثبات له، والفعل الذي حدد الزمن الماضي لهم، لماذا؟ لأنهم ربما يتغيرون، ربما يعبدون الله، لو أنه قال «ولا أنا عابد ما تعبدون» لكانت الإشارة تتضمن المستقبل أيضًا، لذا النفي للماضي فقط. أبواب المستقبل مشرَعة لهم، يمكن لهم أن ينتقلوا، فيصبح النفي الذي كان يخصه يخصهم، ويتحدثون بلسانه.

النفي الرابع (ولا أنتم عابدون ما أعبد) يبدو مكررًا متطابقًا مع النفي الثاني. للتوكيد؟ ربما. ولكن ربما

هناك شيئًا آخر. ولا أنتم عابدون ما أعبد. المعنى الأول الذي يتبادر إلى الذهن هو أن الـ «ما» هنا اسم موصول يفيد لفظ الجلالة. ولا أنتم عابدون الله، الذي أعبد.

لكن الـ «ما» يمكن أن تفيد أيضًا «المصدر»، (ما أعبد) قد تفيد (الذي أعبده) وقد تفيد أيضًا (عبادتي)، أنتم لستم بعابدين «عبادتي»، معنى العبادة عندي وعندكم مختلف جدًّا، المسألة ليست فقط في «المعبود»، بل في مفهوم العبادة الواسع الشامل العميق عندي، والذي يشمل كل الحياة، والمعنى الضيق السطحي عندكم.

سورة الكافرون تحاصر الكفر بالنفي والخطوط الحمراء التي ستحميك أولًا وقبل كل شيء. تتحرك في الزمان عبر الأفعال الماضية والمضارعة، وتنتقل إلى ما وراء المعاني المباشرة.

«لكم دينكم ولي دينِ». كلمة الدين أصلها من دان يدين، حكم على الأشياء وقيمها، ببساطة الحديث ليس عن طقوس وشعائر ومعتقدات فحسب، مجموعة معايير وقيم ورؤية للحياة مختلفة.

كل معاييركم مختلفة عني..

لكم دينكم ولي دينِ... أساس جديد للعلاقات والحدود. علاقتنا يجب ألَّا تكون محكومة بصراعات صفرية عبثية،

بل يجب أن تحترم أولًا الحدود والخطوط الحمراء، هذا ما يقلِّل فرص الصراعات الصفرية بالأساس.

***

تخبرنا السيرة أنه عليه الصلاة والسلام قرأ سورة الكافرون في واحدة من ركعتَي الطواف في العمرة التي اعتمرها صلى الله عليه وسلم عند فتح مكة.

كانت موازين القوى قد انقلبت، وأصبح المؤمنون هم أصحاب اليد العليا، ودخلوا مكة فاتحين بعد أن أعلن كفارها إسلامهم.

رغم ذلك صلى الرسول -عليه الصلاة والسلام- بسورة تضع الحدود وترسم الخطوط الحمراء.

الأمر لا علاقة له بتغيرات موازين القوى. أنت بحاجة إلى الخطوط الحمراء بمعزل عن قوتك أو ضعفك.

هذه الخطوط تحميك في عز قوتك كما تفعل وأنت في شدة استضعافك.

كما تفعل عندما تكون الأمور متوازنة.

وهي التي تحفظ توازنك.

***

عزيزي أنا:

مع سورة الكافرون، وبسبب بعض ما يبدو أنه تشابه في آيات «النفي»، فإنك –مثل كثيرين– قد تتعرض لبعض الخلط في الحفظ.

قد يبدو الأمر كما لو أنه قلة تركيز منك.

لكن ثمة رسالة هنا أيضًا...

الحدود والخطوط الحمراء متداخلة، عليك أن تكون واعيًا تمامًا وأنت تضعها.

الرفض المطلَق كالقبول المطلَق، لن يحميك حقًّا كما تعتقد.

عليك أن ترفض بوعي، وتقبل بوعي.

الإخلاص: الثلث والثلث كثير!

عزيزي أنا:

بغض النظر عن كل تفاصيلك المهمة وغير المهمة، ففي داخلك نقص من نوع خاص.

بغض النظر عن مواهبك، وطموحاتك، ومنجزاتك التي أنجزتها، والتي لم تنجزها، والتي ستنجزها لاحقًا، وشهاداتك الدراسية وغير الدراسية، وسجلك المهني، وشهادات الخبرة، والخبرات التي لا تحتاج إلى شهادات،

ودورات إخراج العملاق من داخلك التي ضخَّمت الأنا في داخلك أو سحقتها تمامًا، بغض النظر عما ورثتَه، أو سترثه بعد عمر طويل، أو إرث السمعة الطيبة –فقط– أو معها الديون بدلًا عن ذلك، وبغض النظر عن أملاكك وعقاراتك (أو عدم امتلاكك لشيء من ذلك)، ورصيدك البنكي –الممتلئ أو الفارغ– بغض النظر عن علاقاتك الناجحة أو الفاشلة، وصفاتك التي تجعل الناس يحبونك ويلتفُّون حولك، أو يكرهونك ويتجنبونك، بغض النظر عن تقييمك لنفسك أو تقييم طبيبك النفسي لك، أو رأي أمك أو زوجتك أو أولادك بك، وبغض النظر عن العُقد التي سببتَها لأيٍّ من هؤلاء.

بغض النظر عن كل ذلك، سواء كان كل من حولك يعدُّونك ناجحًا بكل المقاييس، أو كنت نكرة لا يعرفك أحد غير أفراد عائلتك.

بغض النظر عن كل ما سبق وكل ما يقع في الوسط منه...

سيكون هناك نقص في داخلك، نقص من نوع خاص.

نقص هو جزء من طبيعتنا البشرية، لا فكاك عنه.

يحاول الكثيرون أن يستخدموا كل ما سبق لملئه أو التعويض عنه، دون أن يعوا تمامًا فعلهم هذا.

لا أريد أن أدَّعي أن أغلب محاولات البشر لما يُسمى بـ «تحقيق الذات» تنبع من محاولة ملء هذا النقص، لكن أستطيع أن أدَّعي أن هناك نسبة منهم تفعل ذلك. تحقيق الذات أمر مطلوب بالتأكيد، وقد يحقِّق منافع كثيرة للشخص وللمجتمع من حوله، لكن التصور أنه سيملأ هذا النقص داخل الطبيعة البشرية مجرد وهم.

هذا النقص البشري يحتاج إلى الإيمان بالمطلَق، لكي يجبَر.

الإيمان بالمطلَق، وليس الإيمان المطلَق.

ما هو المطلَق؟ لا تحب هذا الكلمات وتعتبرها تعقيدًا لا سبيل لفهمه؟

لا بأس، سورة الإخلاص ستنقش هذا المطلَق على الحجر في عقلك وقلبك.

***

قالوا له، عليه الصلاة والسلام: انسب لنا ربك...

وفي رواية أخرى، قالوا له: صِفْهُ لَنَا أَمِنْ ذَهَبٍ هُوَ؟ أَمْ مِنْ فِضَّةٍ؟ أَمْ مِنْ حَدِيدٍ؟ أَمْ مِنْ خَشَبٍ؟

كانوا يريدون نسبه. نمط تفكيرهم عاجز عن فهم أي شيء خارج النسب والعشيرة والقبيلة. لا يمكن لهم أن يتخيلوا شيئًا «خارج حدود النسب». من لا نسب له هو

لقيط عندهم. انسب لنا ربك... وإلا... فنحن لا يمكن أن نؤمن به.

وضمن منطق التفكير نفسه، يريد آخرون أن يعرفوا عن «ماهيته». أهو من ذهب؟ فضة؟ حديد؟ خشب؟

لا يمكن لهم أن يتخيلوا شيئًا خارج حدود المادة. تصوراتهم تقف عند حدود الأجسام المادية، لذا فهم يضعون احتمالات ربما جالت في أذهانهم.

ثم تنزل السورة. قصيرة، لكنها تعدل ثلث القرآن.

تجيب عن الأسئلة، وتصف لنا نحن أيضًا المطلَق الذي سنبقى نحتاج إليه بغض النظر عن أي شيء وكل شيء.

مثل هوية تعريفية به عز وجل، وهو الغني عن التعريف.

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [سورة الإخلاص].

لماذا أحد؟ لأنه فرد متفرد.

كلمة «أحد» مبنية على نفي ما سواها. نقول ما جاء أحد، لأن الأحد تنفي المشاركة. والواحد عدد، يمكن أن يطلَق على العاقل أو غير العاقل. أما الأحد، فهو لا يطلَق إلا على العاقل...

وهو أحد، لأن الواحد لا ينفي وجود ما بعده، ولا ينفي أن «ينقسم» هذا الواحد أو يتجزأ. أما الأحد فهو خارج

هذا كله، لا يقبل للقسمة ولا للتعدد، لا قبله ولا بعده ولا جزء منه. هو خارج كل المقاييس، خارج كل المقاييس البشرية وغير البشرية.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [سورة الإخلاص].

والصمد هو القصد، وهو السيد الذي يقصده قومه في كل حاجاتهم. والأصل في اللغة أن الصمد هي الأرض الصلبة شديدة الصلابة.

وكلها معاني تقول لك شيئًا يخصك أنت. صفة «الصمد» لا تتحدث عن قدرته عز وجل في خلقه مثلًا أو بديع صنعه لهذا الكون. الأمر هنا يتعلق بك على نحو شخصي، بكونه عز وجل المقصد الذي يمكن أن تتوجه له عند الحاجة. توجُّهك له مثل وقوفك على أرض صلبة ثابتة. وتوجُّهك لسواه غوص في رمال متحركة. صمودك ينبع منه، من توجُّهك له عز وجل.

الأحد والصمد إذن صفتان تثبتان تفرده، وكونه المقصد الذي يتوجه له الخلق. الآيتان مثبتتان.

الآيتان التاليتان نافيتان.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [سورة الإخلاص].

هذه الآية لا تنفي فقط كل ما وُجد في العقائد الوثنية وما دخل في الأديان السماوية من تشبيهات، بل تنفي

أيضًا أي خلط محتمَل بين «تصوراتنا البشرية» وبين فكرتنا عن الله... كبشر، نحن معتادون فكرة أن تكون وُلدتَ، وأنك من الممكن أن تكون لك ذرية. الأمر جزء من طبيعتنا البشرية، بل ومن طبيعة كل الكائنات الحية. كل الكائنات الحية مبرمَجة على «التكاثر» بغية الاستمرار. ما كان يمكن لنوع أن يستمر، لولا هذا التكاثر. أن يكون قد «ولِد» وأنه «سيلد» بغض النظر عن كيفية حدوث ذلك. مجرد حذف فكرة «التوالد» و«التناسل» سيجعلنا أمام تعاليه عز وجل عن نقصنا البشري، عن غناه عن كل احتياجاتنا ومناطق (اللاأمان) المستوطِنة فينا، لم يلد ولم يولد، لأنه خارج هذه المقاييس والمعايير التي تتحكم في وجودنا، والتي وضعها هو بالأساس.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ **[سورة الإخلاص].**

صفة أخرى نافية. لا تنفي «تفوق» أحد عليه فحسب، بل تنفي ما دون ذلك أصلًا. تنفي أن يكون هناك من يمكن أن يكون في مستواه، منافسًا له. هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، وهل هناك من يمكن أن يكون كفوًا له؟ لا، لا أحد.

تبدأ السورة بالأحد، وتنتهي بـ «لا أحد»، وبين البداية والنهاية نفهم ثلث القرآن، لأن هذه السورة توجز لنا صفات الله في أربع آيات. كل صفاته الأخرى، كلها، يمكن أن تكون موجودة ضمن هذه الآيات. أربع آيات تأخذنا إلى فهم عميق لله بعيدًا عن التشبيه والتجسيم وأي بشرية في تصوراتنا عنه عز وجل. أربع آيات تأخذنا إلى المطلَق في أوضح صوره وأبسطها للعقل البشري.

***

هذه السورة واحدة من أوائل السور التي يحفظها الأطفال، وهي بالتأكيد من أكثر ما يصلي به أغلب الناس. لعل من حكمته عز وجل أن جعلها «ميسَّرة» للحفظ والتلاوة على هذا النحو، لأن المعاني التي فيها تعبِّر عن ثلث القرآن.

والثلث كثير.

***

عزيزي أنا:

قد يحدث ذات ليلة، ربما ذات صلاة جماعة، أن تسمع هذه السورة التي تحفظها كما لو كانت اسمك، التي تستطيع أن تتلوها على نحو تلقائي، دون أي جهد في الاستذكار..

لكنها قد تفاجئك، تصدمك، قد تهزك، قد تخرِج دموعك، تزلزلك.

إنه نقصك البشري يا عزيزي، بغض النظر عن كل تفاصيل نجاحك أو فشلك، نقصك البشري الذي لا يجبره ولا يداويه إلا الإيمان بالمطلَق.

الفلق: عن البدايات، في بدايتها

عزيزي أنا:

في حياتك هناك أشياء كثيرة تستحق أن تخاف منها، لا شك في ذلك. لم يقل أحد إن الحياة يجب أن تكون نزهة، ثمة ما يخيف فيها بلا شك.

أحيانًا ثمة مواجهات صعبة قاسية مرهِقة، وأحيانًا ثمة عواصف وأعاصير ومنعطفات خطرة، وأحيانًا يكون الأمر أقرب إلى المطبات والعثرات، لكنه يأخذنا إلى هاوية سحيقة، وأحيانًا هناك الجدب والقحط، اللاشيء. وهو صعب ومرهِق أيضًا.

وأحيانًا هناك الكثير من الشر، شر محض لا شك فيه.

في حياة كهذه، نحتاج إلى أن نعوذ به، عز وجل. نحتاج إلى أن نلجأ إليه. مجرد أن تشعر بوجود من تلجأ إليه سيزيد قوتك في المواجهة.

لكن أي صفة اختارها عز وجل، عندما قال لنا أن نعوذ به؟

قد نعتقد أن صفات القوة ستكون المناسِبة في هذا السياق. أليس هذا ما يريده الخائف عادة؟

لكن نعم، رب العالمين يشير إلى صفة أخرى.

«رب الفلق». يقول لنا أن نلجأ إليه، رب الفلق.

والفلق في اللغة هو الشق. والمعنى الأكثر انتشارًا في كتب المفسِّرين: الفلق: الخلق. وكذلك فالق الحب والنوى: أي فلق (شق) الحب والنوى من النبات. وفالق الإصباح، أي شق الصباح من الليل.

ما هي الإشارة هنا؟ إنه الرب الذي يخلق الجديد دومًا. كل جديد هو شق من سلفه، كل خلية تتجدد لا بد أن تنقسم، كل نمو وتكاثر يحتاج إلى «الانقسام». الشق. الفلق. هذا جزء من جوهر الوجود المادي، من أسرار آليات البقاء، دومًا هناك الجديد، كما أن مجيء الصباح أمر حتمي لا مفر منه ولا شك في حدوثه.

نحن نعوذ برب الفلق، لأن هذا الفلق سلاح يقدِّمه لنا، هذا التجدد المستمر هو حياة جديدة يمكن أن تحل محل القديم الذي بلى وصار يجب أن يتغير، أو الذي فسد وتحول إلى مصدر للشر. الفلق فرصة جديدة للتغيير،

ورب الفلق هو الخالق الذي جعل وجود هذه الفرصة سُنة من سنن وقوانين خلقه.

نستعيذ برب الفلق في مواجهة من؟

لدينا أربع مواجهات:

أولًا: مع ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ **[سورة الفلق].** الشر لا يُنسب للخالق، بل لخلقه. هناك من خلقِه من ينتج عنهم الشر. ربما بشر مثلنا، وربما بعض «النِّعم» التي يحوِّلها البعض إلى شر، وربما ظواهر طبيعية ينتج عنها شر على المدى القصير، لكنها مهمة على توازنات بعيدة المدى. التعوذ برب الفلق من هذا الشر يحوِّلنا إلى الصورة الكبيرة، إلى «الجديد» الذي يأتي دومًا، الذي يمكن أن نستخدمه لإزالة هذا الشر.

ثانيًا: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ **[سورة الفلق].** والمعنى المنتشر في كتب التفسير يشير إلى ظلام الليل عند دخوله. لكن المعنى اللغوي (الذي لا يتعارض مع هذا المعنى) يشير إلى الظلمة عندما تغطي على شيء.

كل ما هو مجهول، غارق في أسراره عن وعينا وعلمنا يمكن أن يكون مصدرًا للشر، شر مجهول لا يزول إلا عندما نسلِّط ضوء «الفلق» المتجدد عليه، لتزول ظلمته.

ثالثًا: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ **[سورة الفلق]**. المعنى المنتشر هو محاولات «السحر والشعوذة» والخلاف في حقيقة وجود تأثير السحر قديم، وهناك معنى محدث يشير إلى «النميمة والوقيعة»، وفي الحالتين هناك معنى «لمؤامرة»، شر مبيَّت، مع سبق إصرار وترصُّد. ما الذي يجعل هذا مختلفًا عن «شر ما خلق»؟ الشر هنا غير ظاهر. لا يواجه، بل يطعن في الظهر. غالبًا لا يظهِر إلا اللطف والود، لكنه يضمر الشر ويتحين الفرصة.

رابعًا: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ **[سورة الفلق]**. الحسد هو تمني زوال نعمة الغير، والآية تقيِّد الأمر بـ «إذا حسد» لأن ليس كل حاسد ينتقل من «أمنيته» إلى «الفعل». الحسد شعور يمكن أن يحدث بسبب التنافس بين الناس. لكن انتقال الأمر إلى الأذى ليس شرطًا في كل شعور.

ما الفرق بين هذا وما سبقه (النفاثات في العقد)؟ الفرق الأساسي أن الحسد يمكن ألَّا يكون بنيَّة مسبقة، ليس شرًّا مع سبق الإصرار والترصُّد كما مع «النفاثات في العقد»، هو مجرد شعور إنساني ضمن المدافعة

والتنافس اللذين يحكمان الكثير من العلاقات بين البشر، ويمكن أن يوظَّف التنافس على نحو إيجابي، ويمكن أيضًا أن يفلت من عقاله ليصبح مؤذيًا.

إذن نحن أمام أربعة أنواع من الشر، الأول منهم شر ظاهر صريح، شر الأعداء صريحي العداء، وشر ينتج عن الظواهر الطبيعية، لكنه شر صريح واضح بيِّن في كل الأحوال.

الأنواع الأخرى خفية، لكن حتى هذا الخفاء أنواع، **أولها:** شر الجهل، شر ما لا نعرف عنه شيئًا، هذه ليست مؤامرة، بل هو الجهل لأننا لم نكتشفه بعد، وكل ليل مظلم يعقبه صباح يكشف ما خفي في الليل.

ثانيها: شر خفي يظهِر وجهًا لطيفًا وينوي الشر. مؤامرة مع سبق الإصرار والترصُّد. ليس مثل شر الأعداء الصريح الواضح، هذا شر مقصود.

ثالثها: شر خفي ولكن دون نية بذلك، شر ناتج عن الطبيعة البشرية وتنافسها دون أن يكون هناك قصد متعمَّد.

لا أعرف شرًّا في العالم لا يندرج تحت هذه الأنواع الأربعة. الشر الصريح الواضح مع سبق القصد

والتصميم. شر الجهل بالأشياء، الشر المتنكر في الخير، والشر الخالي من القصد.

ونحن نعوذ منها جميعًا برب الفلق، رب الخلق المتجدد، رب الصباح الذي يأتي دومًا بعد الظلام، رب الخلق الذي جعل ولادة الجديد سُنة من سنن الطبيعة.

سورة الناس: عن «أم المعارك»

عزيزي أنا:

ها قد وصلت إلى النهاية.

هذه هي المحطة الأخيرة، بعد ذلك عليك أن تواجه العالم محمَّلًا بكل ما وصل إليك من رسائل.

هذا ما قد تتوقعه من «مسك الختام»، من الفصل الأخير، من النهاية المفتوحة التي تحمل بدايات جديدة.

لكن عكس توقعاتك: السورة الأخيرة سترسل لك رسالة مختلفة.

المواجهة ستكون مع نفسك.

والعالم سيكون معك، على نفسك...

***

في سورة الفلق، كانت مصادر «الشر» خارجية.

أما في سورة الناس، فالشر يأتي من داخلك.

في سورة الفلق تعددت الإشارة إلى مصادر الشر، أما الاستعاذة فقد كانت بصفة واحدة، رب الفلق.

أما في سورة الناس، فالشر المشار إليه واحد، ولكننا نتعوذ بثلاث صفات لله -عز وجل-: رب الناس، ملك الناس، إله الناس.

ليست مصادفة، أن تتعوذ من هذا الشر الذي يُحاك في داخلك برب الناس، ملك الناس، إله الناس. هذا الشر الذي يوسوس لك في صدرك يعتمد غالبًا على (الأنا)، وتحديدًا مشكلات هذه الأنا ونقاط ضعفها.

إنه ذلك الوسواس القديم قِدم قصة آدم وزوجه.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الأعراف].

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة طه].

الوسواس قديم قِدم النفس البشرية، إنه ملازم لنا منذ أن بدأت حكايتنا.

وهو مدخل من مداخل الشر الذي عليك أن تواجهه.

***

الشر هذه المرة يأتي من الداخل.

وعليك أن تواجهه.

تواجه نقاط ضعفك، مناطق اللاأمان في داخلك، مخاوفك السرية، عُقدك، جروحك غير الملتئمة، الخدوش على جدار روحك، والكدمات على قلبك، والرضوض في قدرتك على التحمل.

كل ما يمكن أن يمكِّن منك شيطانك ويجعله يتحكم بك.

عليك أن تواجه شياطينك.

هذه هي معركتك الأهم من كل المواجهات والمعارك الأخرى.

هذه هي «أم المعارك» حقًّا.

***

لم تكن الاستعاذة من «الوسواس» نفسه.

بل من شرِّه تحديدًا.

ليس كل ما يُحاك في صدرك شرًّا، فبعضه قد يقود إلى رحلة تنتهي باليقين، وبعضه قد يجدِّد إيمانك، وبعض ما يجدِّد إيمانك قد يجدِّد إيمان آخرين.

وبعضه قد يقودك لاكتشاف مناطق قوة لم تكن تعرفها في نفسك.

الاستعاذة هي من شر الوساوس تحديدًا.

فانتقِ معاركك.

***

موقع المعركة في أعماقك، مجاهلك، أغوار روحك وتلافيف دماغك ودهاليز قلبك.

هذه معركتك، لكنك لست وحدك، أنت تعوذ به، هو ملاذك وملجؤك في هذه المعركة.

ليس لك سواه.

وإذا كان «الخنَّاس» صفة للوسواس نفسه وليس للشيطان الذي يبث الوسواس، فالوسواس هنا «يصيب الشخص بالانقباض»، يشعِره بالقلق، يشعِره بالوحدة والعزلة.

هنا يأتي دور الإشارة إلى الناس، هذه الأنا «الموسوسة» يمكن لها أن تتوازن مع ذِكر الناس، مجرد تذكيرك بأنك جزء من مجموع أكبر، وأن كل ما يمر على صدرك قد مر

على غيرك عبر آلاف السنين، مجرد هذا، سيخفِّف من ثِقل الوساوس على صدرك، أنت واحد من الناس، كبرتَ صغرتَ، مهما ارتفع شأنك أو كنت بلا شأن، مهما كنت تعتقد أنك مهم، أو كنت مقتنعًا بأنك لا أحد.

في النهاية، أنت واحد من الناس، ما تمر به مر على ملايين قبلك، وسيمر على ملايين بعدك. هوِّن عليك يا حامل الهم، كل شيء سيمر.

كل شيء.

***

ترتيب الصفات التي جاءت بها السورة ليست صدفة أيضًا، حاشا، بل هي تحيط بك بالتدريج.

رب الناس هو خالقهم، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، فهو رب الناس، كل الناس، دائرة واسعة تضمنا جميعًا بكل أديانا -أو لا أديانا- وألواننا وأعراقنا وثقافاتنا وجنسياتنا وجوازات سفرنا المتفاوتة في قوتها.

مع «**ملك الناس**»، الأمر مختلف، الدائرة أصغر، الرعايا يميِّزون «ملكهم» ويعرفونه، لا ينكرونه، وهم ربما يطيعون قوانينه، لكن العلاقة هنا علاقة رعية بملك، تشبه علاقة أغلب الناس بالقوانين في بلدانهم، يطيعونها

نعم، وربما يؤمنون بأهميتها، ولكن... العلاقة «رسمية»، إن شئت.

أما مع «**إله الناس**»، فأنت في دائرة أقرب بكثير، أكثر حميمية. هنا هو المعبود، هنا تحبه، تؤلِّهه، هنا تعرفه، تحدِّثه، تشكو له وتبوح له بما يعرفه تمامًا، هنا تكاد الدائرة تحيط بك وتحتضنك وتربت على كتفيك وتزيح عنك وساوسك، تمسح عنك دمعتك.

لم تصل إلى هذه الدائرة الحميمة إلا عبر المرور بالدائرتين الأكبر، لا يمكنك أن تصل إلى «إله الناس» تمامًا إن لم تمر أولًا بدائرة «رب الناس» ومن ثم دائرة «ملك الناس».

عندها ستستطيع أن تلجأ له، وتلوذ وتستعيذ به في معركتك الأهم ومواجهتك الأكثر حسمًا.

مع الشر من الداخل.

مع «أم المعارك».

***

عزيزي أنا:

عرفت الآن؟

إذًا فالزم.